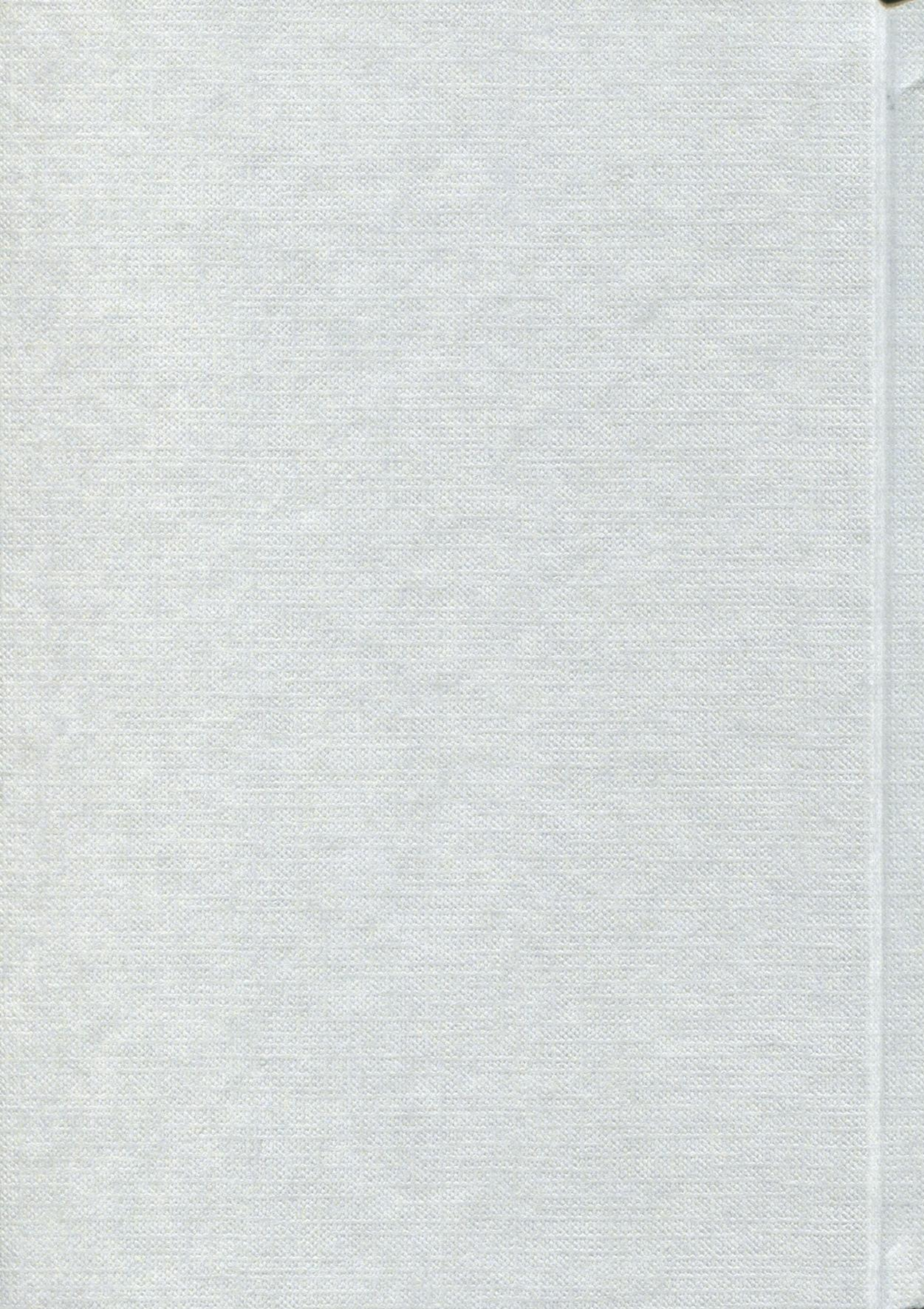
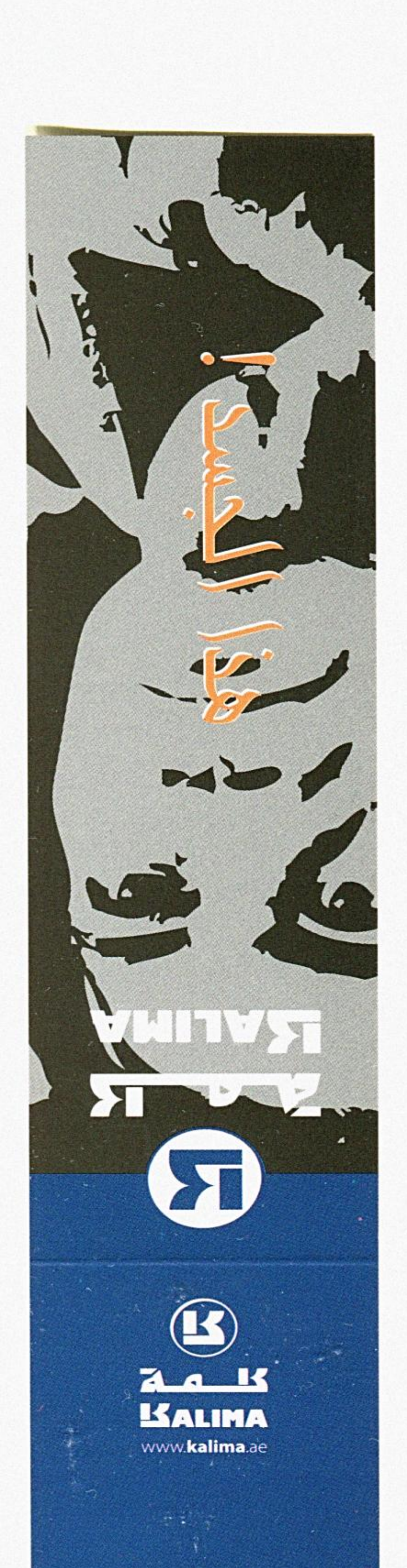
كريستا فولف

هذا الجسد !

ترجمة : كاميران حوج

علي مولا





نبذة عن المؤلفة:

ولدت الكاتبة كريستا فولف عام 1929 في لاندسبرغ فارته (غورشوف فيلكوبولسكي، غرب بولونيا)، وتعيش الآن بين برلين ومكلنبورغ فوربومرن. نالت أعمالها التي نشرتها دار سوركامب جوائز كثيرة، بينها جائزة غيورغ بوشنر التي تعدّ أهم جائزة أدبية في ألمانيا، وجائزة الكتاب الألماني على أعمالها الكاملة. من آخر أعمالها الأدبية المجموعة القصصية **Mit anderem Blick** (برؤية أخرى) و**Der Worte Adernetz** (وهو مقالات وخطابات).

كتب أعلام وقادة الفكر العربي والعالمي
لمتابعة الكتب التي نصورها ونرفعها لأول مرة
على الروابط التالية

اضغط هنا منتدى مكتبة الاسكندرية

صفحتي الشخصية على الفيسبوك

جديد الكتب على زاد المعرفة 1

صفحة زاد المعرفة 2

زاد المعرفة 3

زاد المعرفة 4

زاد المعرفة 5

scribd مكتبتي على

مكتبتي على مركز الخليج

أضغط هنا مكتبتي على تويتر

ومن هنا عشرات آلاف الكتب زاد المعرفة جوجل



هذا الجسد!

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
هذا الجسد
كريستا فولف

الطبعة الأولى 1430 هـ -2009 م
© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

PT2685.O36.L3612 2009
Wolf, Christa
[Leighaftig]
هذا الجسد/ كريستا فولف؛ ترجمة كاميران حوج. ـ ط.1. ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

176 ص؛ ؛ 21×14 سم.
ترجمة كتاب: Leibhaftig
تدمك: 978-9948-01-397-6
1- القصص الألمانية أ - حوج، كاميران. ب - العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Christa Wolf
Leibhaftig
© 2009 Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main



www.kalima.com
ص.ب: 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+



www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz, Fachbereich Translations-, Sprach-und Kulturwissenschaft, An der Hochschule 2, 76726 Germersheim, Postfach 11 50, 76711 Germersheim Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

رواية

هذا الجسد!

تأليف:

كريستا فولف

ترجمة: **كاميران حوج**

مراجعة: **مصطفى السليمان**







مقدمة

الكاتبة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية نزحت عائلة الكاتبة إلى القسم الشرقي من ألمانيا حيث تابعت دراستها، وانضمت إلى الحزب الاشتراكي الألماني الموحد عام ١٩٤٩، وظلت عضواً فيه حتى انهيار جدار برلين عام ١٩٨٩؛ لكنها لم تكن -كغيرها من المثقفين في ألمانيا الشرقية قانعة تماماً بانحلال الدولة الاشتراكية أو اضمحلالها، بل كانت تحلم بإجراء إصلاحات في البنى الاجتماعية والاقتصادية، وتطوير النظام الاشتراكي. وألقت في ٣ تشرين الثاني ١٩٨٩ خطاباً عرف بلغة «التحول أو الانقلاب»؛ ورفضت فيه مصطلح «الانقلاب» مجازاً للأحداث التي كانت تجري آنذاك. خلال مسيرتها الطويلة كتبت كريستا فولف الرواية والقصة وسيناريوهات الأفلام والمسلسلات، ونالت كثيراً من الجوائز الأدبية، بلغت حتى الآن ١٥ جائزة.

القصة

تبدأ القصة بكلمة وحيدة: «جريحة».

في هذه الكلمة تعبير كاف عن العوالم التي تنوي الكاتبة سبر أغوارها؛ امرأة لا اسم لها تعاني قبل سقوط جدار

برلين من مرض خطير، وتصبح كل خلية من جسمها كهفاً، وكل وريد وادياً والدم يغدو نهراً جارفاً. ومع أن جسدها يعطيها إشارات واضحة على الضعف والوهن إلا أنها لا تأخذ هذه الإشارات على محمل الجد حتى ينهار الجسد. كريستا فولف تربط بذلك بين انهيار الجسد وانهيار الجدار، تخضع المريضة لكثير من الفحوصات والعمليات الجراحية حتى يتمكن الأطباء من تحديد بؤرة المرض، يكافحون لإنقاذ حياتها حتى يأتيها الدواء الشافي من الناحية الأخرى للجدار؛ من الغرب.

بين الموت والحياة، بين الغيبوبة والصحو؛ لا يبقى للمريضة سوى الخوض في أعماق الجسد وسراديبه، فتهب عليها الذكريات: الحياة في برلين قبل الحرب العالمية الثانية، قصة حب بين خالتها وطبيبها الذي يهرب من وجه ألمانيا النازية، قتل رضيعهما خشية ملاحقة النازيين. زملاء الدراسة والأصدقاء، ولاسيما أوربان الذي صعد فجأة وفي ظروف غامضة في هرمية ألمانيا الشرقية. وعندما اكتشف ذات يوم أنه ليس لديه أي موهبة انتحر؛ وذلك أنه انعزل عن أصدقائه ورفض النظام في النهاية. وهناك كذلك مخبرو النظام الذي يتحكمون في البلاد والعباد، والمعارضون العفويون الذين يحلمون بإسقاط النظام بين ليلة وضحاها.

في خضم هذه الذكريات تتساءل الراوية إن كان المرض غزاها لتكشف «حجراتها الداخلية»، إذ «لا تكفي الكلمات للوصول» إليها؛ ولهذا يدخلها في حالات اللاوعي لتصف مملكة الظلام التي عاشت فيها، حيث يختلط الزمان ويختلط المكان. يعيش القارئ حيناً أسطورة تسقطها الكاتبة على حاضرها، وحيناً وصفاً للخراطيم وعنابر قبو المستشفى التي تسقطها الكاتبة على العالم السفلي، مملكة الظلام.

تعمد الكاتبة كريستا فولف في هذه القصة إلى اللعب الفني باللغة والمفردات، بالزمن الروائي والشخصيات، بسرعة عالية وجمل قصيرة تريد أن تعكس الأحداث في جسدها وفي العالم حولها؛ فكثيراً ما نجد أنها تكرر الكلمة ومفرداتها متلاحقة، أو أنها تجد كلمات خارج السياق لتصف بها ما لا يوصف بالكلام المعهود. تخلق في حالات الغيبوبة لغة شعرية عالية، لتنقلب على لغتها، وتعود في حالة الوعي إلى كلمات بسيطة وتعبير ساذج تستخدمه الممرضات في أحاديثهن اليومية. وهي في الحالتين كلتيهما مخلصة لنفسها بوصفها أديبة رفيعة المستوى، وهذا مما يميزها.



جريحة

شيء يشكو بصمت، عاصفة من الكلمات تهب في وجه البكم الدؤوب على نشر ذاته، متزامن مع الغيبوبة. يطفو الوعي ويغطس في طوفان أسطوري. الذاكرة كأنها جزر متفرقة، تمخر بها إلى أصقاع لا تكفي الكلمات لبلوغها. هذا سيكون إحدى آخر أفكارها الواعية، نحيب فيها، وحولها. ولا من سامع للشكوى ولا مجيب. وحدهما المد والروح على الأمـواه. خيالات منقطعة النظير، بحكم اللطف المعهود ترطن المريضة بلسانها الثقيل المشلول: أن تكون نوابض سيارة الإسعاف بكل هذا السوء، جملة سرعان ما يلتقطها الطبيب، الجالس في كرسي الطوارئ إلى جانب محفتها، بحماسة وبهجة غريبة. عار، يشدد عدة مرات، عار حقيقي، لقد ذهبت جميع الاحتجاجات أدراج الرياح. ثم ينبهها كي لا تحرك ذراعها اليسرى من الوعاء الشفاف المعلق على رأسها، والذي يترجرج على إيقاع سيارة الإسعاف، يتسرب سائل قطرة فقطرة عبر خراطيم إلى وريدها، الإكسير؛ إكسير الحياة. باليمنى عليها أن تتمسك بالمقبض المتدلي من سقف السيارة كي لا تتزحلق عن المحفة القاسية. يزداد الجرح إيلاماً، يعلن الطبيب عابساً: هذا ليس غريباً في هذه الظروف. رحلة طويلة، صعود وهبوط. تعلو استغاثة الشكوى وتعلو، تنطلق موجة أخرى، موجة عاتية، في الطوفان ذاته، تجرفني معها. الغطس. الانغماس. ظلام. سكون.

هذا الصوت الذي يثير الاشمئزاز، مقطعان صوتيان يتكرران برتابة مميتة، تتعرف فيهما على نداء ما .. على اسم .. اسمها .. لماذا يناديني باسمي الأول؟ .. وجهٌ شابٌ تحيطه لحية دقيقة، قريب منها، قريب جداً .. يكرر الاسم بنبرة آمرة، عالية جداً .. مزعجة جداً .. إلام يسعى؟ .. عليها أن تجيب؛ لكنها لا تقدر .. وبجهد جهيد تومئ .. أخيراً يكف بلاءه عنها، «لقد فهمت»، لا شيء .. لا شيء يرتج بعد .. بأناملها تتلمس القاع .. إنه وثير .. فوقها وعاءان من السائل المغذي .. سقف بدهان أبيض .. غرفة .. غرفة بيضاء .. غرفة انتظار، تنطوي على قلق واستعجال.

تغمض عينيها وتتهاوى في حجراتها الداخلية السوداء الرمادية .. تطفو فوق الماء الراكد .. حياة الإنسان مثل الماء .. – هيه، لا تنامي... صوت مزعج .. تغطس .. يخضها قرع في الداخل، لا تتعرفه من فوره .. ألا يأتي من القلب؟ فمن سواه يصخب هكذا .. خبباً .. أحدهم ينادي من جديد .. فلتجتمع كل القوى لفتح العينين .. وجه صبية في مقتبل العمر في رداء وردي .. تصوغ، طبعاً من دون أن تسمع كلمات، بينها كلمة «قلب» .. الصبية لا تفهم .. ببطء معذب تجس نبضها .. تعلن: «دكتور»، تسرّع القلب .. بغتة وجهك جانب وجه الطبيب الغرير: «ماذا تفعل أنت هنا؟، ما الذي جاء بك؟». كأنها عليها استجرار شعور خفي .. هل قلت شيئاً .. أتهاوى ..

القلب يخفق سريعاً .. أسمع كلمة.. النبض .. نوبة فجائية .. تمس هذه الكلمات أقصى تخوم وعيها .. أغطس مارة بوجه أمي المحتضر .. أقف إلى جانب نافذة غرفتها في المستشفى وأراني بعينيها ظلاً أسود في ضوء الصيف.. أسمعني أقول: «لقد هاجموا براغ». وأسمع أمي هامسة: «هناك ما هو أسوأ». تدير وجهها ناحية الجدار... «نعم هناك ما هو أسوأ».. أمي تموت وأنا أفكر في براغ.

من كان يعلم بوجود كل هذه الحجرات الداخلية؟. ها هي تنزلق في إحداها، حيث المجريات على أشد الخطر، هنا الطغيان لضوضاء الجحيم، للغط العار. تشعر بنبض قادم من البعيد، يشتكي، إلا أنه يفتقر غضباً يشحنه، يبلغ به مدار الانفجار. وبدلاً عن هذا يريد أحدهم أن يعرف منها بماذا يحقنها؟. يصرخ: «الدواء، هل تتذكرين اسمه». تنقذف، تفتح عينيها. ضوء غامر. يصوغ فم الطبيب اسماً غريباً عليها، تحرك رأسها نافية. تسمع: «لنجرب هذا». لا يبدو واثقا من نفسه. يقول صوتك: «ماذا تفعل؟. ماذا تعني؟». تصغي للسؤال.. «لا تتوتري، سنسيطر على الوضع».

من قال إني متوترة. فليس فيها طاقة كافية للتوتر. أبلغها أحدهم ذات مرة أنه مزعج جداً، لكن لا أحد يموت به. كان هذا في المرة الأولى، كانت الطبيبة المقيمة في مستوصف

الطوارئ لاستوديو الأفلام، أنت لم تكن هناك، كنا بصدد «عرض» فيلمنا لـ «يقبل». كلمات مفهومات كانت تشي بالكثير برأيي؛ إلا أن لوثر هدأ من روعي. كنا جالسين أمام الاستديو على مقعد في ظل شجرة بتولا. قال لوثر: لا تخافي؛ ستسير الأمور على أحسن ما يرام، فنحن في الوقت الملائم لمثل هذه الأفلام تماماً، الشعب ناضج لها، وحتى في المراكز العليا لا يبدي أحد نية لمناكفة الفنانين. هنا كاد قبلي يخرج من مكانه. سمعت لوثر يقول ضاحكاً: إن كنت فعلاً أعتقد أنه سيسمح بتمزيقنا شذر مذر، وقلت: لا أستطيع الدخول. انقطعت ضحكته. عد كلامي جبناً، ضعف ثقة في قدراته، شعر بالمهانة، كنت أعرف ذلك التعبير في ملامح وجهه. قلت له جسّ نبضي، فعلها على كره منه. اقشعر خوفاً وأخذني شخصياً إلى براكة مستوصف الطوارئ، شفقة ورحمة، كما كان يقول في مثل هذه المواقف. تصارع فيّ إحساسان، مازلت أتذكر؛ فذاكرتي تحتفظ بالأحاسيس المتنازعة على أفضل صورة. لم يكن جميلاً بحقي إطلاقاً أن أنهار أمام أعين الجميع، وأكشف بذلك وضعي الداخلي. راح يتضح لي أنه الخوف. إلا أن هذا الخوف صار سعدي؛ فبفضله ما عدت قادرة على دخول العرض. بديهي لا تستطيعين، كرر لوثر جملته عدة مرات، وعقب: سنتمكن وحدنا من السيطرة على الموقف، سيكون هذا أفضل بكثير، في داخلي ضحك معي أحدهم ضحكة مكتومة علي.

لا يني الطبيب يتغلغل فيها، كما هو متوقع لم تظهر الحقنة مفعولاً. عليها أن تبذل قصارى جهدها كي تتذكر الدواء الصحيح؛ إذن فقد أخبرتهم بكثرة تكرار هذه النوبات ووجود دواء، لا تعرفه أنت لأنك لا تحفظ أسماء الأدوية أبداً. تذكري، أسمعك تقول. كأنك حانق علي لأني أنسى. عليها أن تتذكره. قد يخرج عقلها لحظة عن الإضراب العام في هذه الحالة الطارئة. تتخيل العلبة التي تحوي الدواء. لونها ضارب إلى الخضرة، الكتابة عليها بخط أبيض. ها هي قادرة على قراءة الاسم. تهمس به للطبيب الشاب، الطبيب المناوب، طبيب الحالات الطارئة. يعيد الاسم متسائلاً، تسبل جفنيها وترفعهما موافقة. وطّن نفسه على طريقة للتفاهم معها، يبدو أنه راض عليها الآن، تسمعه يعطي تعليماته للممرضة... عندنا ... عندنا ... إذن، تمام.

آنذاك أيضاً كنت تعيسة، تعيسة قليلاً. تعاسة لا تقارن باليوم؛ لكني ما كنت مضطرة للمبالغة، للتمارض. استندت على ذراع لوثر، ما عدت قادرة على السير أسرع، أشرفت على الاختناق، وتبين لي أن خدمته كانت على وجه الواجب أكثر مما هي شخصية، مع أنه تجاوز الموقف المحرج لنا كلينا بنبل رفيع. يا له لوثر! أن يؤدي بواجبه العام نحوي، أن يتظاهر بأنه شخصية مهمة، الأمر المتوقع منه في هذه المواقف، النادرة لحسن الحظ. ثم أن يبرز في المستوصف ذلك الصنف

الحذر، لكن الجلي، من التسلط عبر تلك التدخلات الآمرة، ما دعا الممرضة في شباك الاستقبال، ومن ثم الطبيبة؛ إلى الاستعجال. هل أخبرتك بهذا؟ بدت تصرفاته كلها شاذة، وتساءلت عندما استلقيت على المضجع الصلب: متى وأين تعلم لوثر هذه العنجهية؟. في أيام الدراسة ما كان يتقنها، بذلت جهدي للتغلب على ضعفي؛ بل رسمت ابتسامة باهتة على وجهي، مع أني جزعت قليلاً فقط، جزعاً مازال هيناً؛ إلا أنه سيحتد خلال الساعتين التاليتين. لم أرو لك هذا أبداً؛ لكن الجزع ما كان يستحق آنذاك اسم «الخوف من الموت»، التعبير الذي طرحته الطبيبة ولو بصيغة السؤال: لا خوف من الموت؟ لا؟ – لا. قالت إن الخوف من الموت يترافق بالضرورة مع أعراض تسرع القلب.

الآن تعرفها، لكنها لا تحتاجها، كما أنها لا تخاف الموت حتى الآن، ربما لأنها عاجزة عن الخوف. لم يروعها أن الحقنة لم تظهر مفعولاً، فهي خبيرة في هذه النوبات، ما أكده لها طبيب قبل عهد غير بعيد. النوبة الأولى جاءتني من دون استعداد، من دون توقع، ببراءة، إن كانت هذه الكلمة صالحة في هذا الموقع، إذن من دون رياء أيضاً، وآنذاك لم يكن لدي أدنى علم بمعنى أن تدوم ساعة أليمة، ثم ساعة أخرى، حتى ترسل الطبيبة في طلب أقوى دواء في الصيدلية، دواء لم تحتط له. نظر لوثر إلى الداخل؛ كان هو الوحيد

الذي يحق له النظر إلى الداخل، بحكم المركز، وأعلن أن كل الإجـراءات ستتخذ. وكأنها تشك في هذا أدنى شك. جالت ببصرها في أرجاء غرفتها المنارة والمعقمة كلياً على رف الخزن الزجاجية على الجدار، ومحتوياتها من أدوية وأجهزة، والنافذة الكبيرة المطلة على مشهد أخضر. أراحتها ذرى أشجار البتولا التي تتلاعب في الفضاء. لقد فقدت كلمة الراحة كل معانيها عندي، لا أستطيع حتى أن أتخيل معناها؛ لماذا تبحلق فيّ هكذا؟

عرض لوثر خدماته على الطبيبة بحدة مترافقة مع رفع الكلفة. سأل إن كان عليه إرسال سيارة، تأمين دواء فعال، ربما دواء غير متوافر عندنا؟ إحضار طبيب مختص؟ يجب ألا نفوت أي فرصة. أربكني تبجحه أمام الطبيبة التي بدت بدورها مرتبكة، واكتفت بأجوبة من مقطع واحد فقط. كانت هالة من الزيف تحيط به. منذ متى يا ترى؟ الزيف، كلمة قوية، استخدمتها مرة مسكوكة ليس على لوثر، إنما على أوربان. كنت حاداً معه، حاداً جداً، قلت لك: كنا ندرك مرامي، أنت لم تبال. لم تعرف علاقتنا كلمات مثل الغيرة والشك. قال لوثر: بالمناسبة أنا قادم للتو من العرض. اكتفى بالقول: تهانينا.

هنا تساءلت إن كان جسمي ـ الذي هتكت أسراره تدريجياً

ـ قد تظاهر بكل هذا لمجرد أن تغدو كلمات لوثر سيان عندي تماماً. قال لوثر: بالمناسبة اتصل أوربان. المسلي أنه كان يحتفظ بسحنة الموظف المهم عندما يتحدث عن مراكز القوة. كثيراً ما كنا نعيره بهذه السحنة، ولاسيما أوربان، فهو لم يفوت فرصة واحدة لتعييره: انتباه، استعداد، لوثر يبدأ الحفلة. والمسلي أن أوربان صار مسؤولاً على لوثر. متى حدث هذا؟ هل حدث لمجرد أن أوربان سبق لوثر على سلم المناصب، وأضحى في وضع يمكنه من توجيه التعليمات إليه وإصدار الأحكام على عمله؟ أحكام خفيفة حسب الإمكان، وإذا لم يكن هناك منحى عن النقد، نقد ملتبس بسخرية تشف عن أننا كلنا تربينا في الحضن ذاته (عن أن حارتنا ضيقة)، كما درج أوربان على القول. هذه الضمانة كانت كافية للوثر، حتى لو لن ينبس بها أوربان علانية. أن يتصل أوربان فوراً ليطمئن على العرض! أن يكون راضياً كل الرضا عن الجواب المريح! أن يكون قلقاً علي ويطلب إيصال تحياته إلي!

هكذا لن نتقدم؛ قال الطبيب الشاب. ربطوها خلال ذلك إلى جهاز ينقل نبضات قلبها على شاشة. طبيبة هزيلة، مسرورة بوصولها، تجهد نفسها مع الجهاز، شعرها مصبوغ بالرمادي، مقصوص على شكل قبعة ضيقة. خفقات سريعة جداً، تؤنب الطبيب الشاب ذا الذقن الشريطية على الخدين

والفك. فلا يعجبه إطلاقاً ما يسمعه، ويحصي كل ما فعله؛ كأنه مضطر للذود عن نفسه. تود لو تدفع عنه الغبن. الطبيبة - صاحبة الأمر والنهي - تلفظ اسم دواء، وتسأل المريضة إن كانت تعرفه. المريضة تنفي. تقول الطبيبة إنه جديد، نحقنه بكل رفق، تحت المراقبة على الشاشة. يا الهي! لكنك غرقانة في العرق. حديث قصير بينها وبين الممرضة الشقراء ذات الرداء الوردي القصير. تقول الأخيرة: كلا، لا يمكن تبديل ثيابها هنا في الطوارئ، سيفعلون هذا في الجناح.

الطبيبة في ذلك المستوصف - مازلت أذكر - بللت وجهي بالسلليوز؛ لم أعد أذكر بعد كيف كانت ملامحها. الوجوه تغيب عن ذاكرتي. قصور لا تفهمه أنت. أما لوثر فقد تخلى بغتة عن تبجحه المزيف، واتخذ ملامح الصديق القديم، مازلت أذكر تلك العلامات على وجهه؛ كان مندهشاً، مرتبكاً، محتاراً، كما هي طباع الرجل عندما يسمع نبأ مرض امرأة. كان علي أن ابتسم، ابتسم له، الأمر الذي هون عليه.

أليس فيك قوة كافية للضغط؟ تسأل الطبيبة الهزيلة؛ فيشير لها الطبيب الشاب مؤنباً إلى الجرح في بطن المريضة، فهو بالنتيجة مبعث المرض؛ إلا أن الطبيبة لا ترضخ بسهولة، تحاول بضغط شديد من إبهامها على الشريان السباتي، لكن هذا لا ينبئ بانخفاض سرعة النبض أيضاً. ماء مثلج؟

لكن الشرب ممنوع عليها – آها – إذن فقد خسرت شفقة الطبيبة الهزيلة أيضاً.

جسدي يجمح؛ كما يقول المثل، كل ماض محض مثل. لم تفهم بعض السطور على أكمل وجه قط؛ فقد ظل معناها خفياً في ظلام يبدو مسامياً، إلا أنه في الواقع لا يخترق حتى الآن حتى هذه اللحظة المعتمة، حيث يتجلى لها المعنى بغتة. لكن إذا مضت الأعوام المئة أخيراً ستنهار أسوار العليق، سيمسك ثيسيوس بيد آريادني بكل قوة ويجد منفذاً من المتاهة، سيستبين حل السر الذي كان يبحث عنه منذ عهد سحيق. إن كنت تصدقني أم لا، فما زلت أذكر كل ما جال بخاطري آنذاك في مستوصف الشركة، كنت في أواسط الثلاثين؛ شابة، شابة في مقتبل العمر، يبدو لي كأن في الوقت متسعاً، أسرع قلبي، مثل الآن. تخافين؟ نعم – تخافين من الموت؟ لا – غير طبيعي.

تحاول الطبيبة الهزيلة طرد أحدهم من الباب لكنه يدخل عنوة؛ هذا أنت؟ أين كنت طوال الوقت. أحاول الترحيب بك بعينيّ من دون أن أعرف طبعاً إن كنت ستفهم لغة عيني. تتحدث إلى الأطباء. ستلاحظ هي أن الإنسان قد يكون عاجزاً عن الفرح، وأن أحداً لن يفهم هذا العجز خلا العاجز ذاته. تجلس الطبيبة على حافة محفتها، تفحص الوريد في

مرفق يمناها، تأمرها بقبض يدها، تقول: أقوى، تغرز، من دون أن تشعر هي بها، إبرة الحقنة في الوريد، وتبدأ بدفع مكبس الحقنة ببطء شديد. تتوقف عن الحقن. تراقب الخط الأخضر المتعرج على الشاشة، تردد نبضها، تتفاهم تلميحاً مع الطبيب الشاب الواقف على الطرف الآخر من المحفة. يهزان رأسيهما هزات تكاد لا تلاحظ. القلب يسرع. هل مازلت هنا؟

أم أن قلبي ـ وهو أمام خيارين؛ إما التوقف التام أو التسرع ـ يختار التسرع المطلق؟ لمصلحتي بمعنى من المعاني؟ لا تتجرأ على التفكير في هذه الأسئلة إلا أنها تطرح نفسها بنفسها. كل ما يحاصرها هذه الغرفة العارية الموحشة، هذه الأجهزة المربوطة إليها عبر الخراطيم والأسلاك، النبض الذي لا يقبل الهدوء حتى بعد أن دفعت الطبيبة بآخر قطرة من حقنتها في شبكة الشرايين والأوردة، كل هذا الحصار يجر أسئلة، لا تستطيع هي صياغتها في كلمات. أقول لك: اذهب، اذهب رجاء، وجودك يرهقني. رجاء اذهب. ستلاحظ أن وجود أقرب إنسان إليك في الغرفة نفسها قد يكون عبئاً مرهقا جداً.

كم مر من الوقت حتى هدأ نبضي آنذاك؟ أكثر من ساعتين في ظني. كان فيلمنا قد انتهى بنجاح، ولن يعترض قبوله أي

شيء حسب كل التقديرات الإنسانية، كما أكد لي لوثر عدة مرات. كانت الطبيبة مكلفة بالاتصال به حالما أصبحت في وضع يسمح «بنقلي». كان قد أمن سيارة رسمية لأجلي، وكنت سعيدة جداً بأني لن أضطر لارتقاء درج الحافلة. كنت مجهدة، صنف لا يوصف من الإجهاد. لا غرابة، كما أسمع من أفواههم؛ فقد أنهى قلبي سباق ماراثون. كنت وحدي في البيت، ونمت نوماً عميقاً وطويلاً. كان أوربان أول من اتصل بي في الصباح التالي، وشكرته بحسن سريرة على اهتمامه بي. ثم تراخى حسن السريرة، تراخى من الطرفين، يجب أن أقر بهذا. هكذا يفكر الإنسان: إذا لم يكن الآخر حسن السريرة؛ فلدي الحق في المراءاة. كانت مراءاتنا تكمن في، مازلت أذكر أننا تظاهرنا طويلاً بأننا نؤمن بحسن سريرة أوربان. للحال بدأ الشجار حول الفيلم. لم يهنئنا لوثر عليه مرة أخرى؛ لكنه لم ينفض يديه عنه فوراً، بل استحال إلى مصد لامتصاص التشنجات، هذا الجميل الذي لم ننكره له. لكن عندما راحت الدوائر تدور عليه أيضاً بدأ بتنصل بحذر، ليس منا، لا. لم يبلّغنا بأسوأ آيات القدح التي ألصقت به. ظل صامتاً طالما كان قادراً على الصمت. لئن كان أوربان أيضاً قد ضغط عليه، لم نعرف منه هو. كان قد قال إنه لا يشك في نوايانا الشخصية الشريفة، إلا أن الأثر الموضوعي لهذا الفيلم وفي الحالة الراهنة أثر ذو حدين. أعلمنا لوثر

بهذا الرأي على أنه رأيه الشخصي، استشفّنا. لقد مر عهد طويل على كل هذا، عهد طويل، خمسة وعشرون عاماً، ربع قرن، عهد يصعب تصوره؛ لكن ألم تخسري أوربان قبلاً؟ كم مرة في عمرنا نستحيل آخرين، ونخسر الذين قضينا معهم أيام الشباب، ولنقل البراءة؟

ليل، شيء مثل الليل، بيد أنه أكثر عمقاً، أكثر عتمة، أكثر توحداً. لن تتذكر مستقبلاً هذه الليلة الليلاء، إنما ستتذكر ذكرياتها عنها. لا بد أنهم تمكنوا بشكل من الأشكال من إعادة نبضها إلى طبيعته، من نقلها إلى الجناح الداخلي ووضعها في سرير. إنها في غرفة، في الغرفة نافذة، في النافذة بارقة نور، لمح بارقة. مازال قميصها غارقاً بالعرق، وكذلك فراشها. وحين تستيقظ تبدأ ضوضاء تصم الآذان، صرير حاد، لم تسمع له من قبل مثيلاً، كأن يتطاحن المعدن بالمعدن بقوة رهيبة، يهشم بعضه بعضاً. حراب، سيوف. ترى أجساداً تتصارع، تتشابك في هيئات والتواءات خارقة. لم يعد هذا مزاحاً، أحدهم جاد معي هنا. لو أني ظننت يوماً ما أني ضعت فمن المستحيل أني كنت أعرف آنذاك ما معنى الكلمة.

هدير وريح صرصر، قصف وانهيال مطارق، صليل يصم الآذان، صفير جهنمي يسري حتى العظام. ما كنت أعلم

بوجود مثل هذه الأصوات، وليس لأحد أن يعلم بها. وأما أن تستخدم وسيلة تعذيب!! .... لقد حان الوقت. في هذا الضوء المريض، الضوء الأخضر الضارب إلى الزرقة، الذي لا أعرف مصدره، وفي هذا القصف الجهنمي، يجلدني تاريخ الوجع والتعذيب. جنود هيرودوس يضربون الأطفال بسيوفهم. صراخ أوائل المسيحيين المروع وهم في الحلبة وجهاً لوجه مع الحيوانات المفترسة التي تمزق أجسامهم. فظائع محاكم التفتيش، والحروب الصليبية، وجرائم الأمراء الألمان بعد حرب الفلاحين. جثة المرأة المستباحة في القنال. وهذه ليست إلا بداية مئويتي (المئة عام). انتهاكات من كل الأصناف. استشهاد الحب وتقديم قرابينه، بينها جسدي. تتوافر حالات رحيمة من الغيبوبة، دقائق، ثوان، لا تعرف مدتها.

هل تتوجعين؟ إما أنها لم تجاوب أو أنها جاوبت خطأ؛ فقد عادت الممرضة من حيث أتت.

تعرف أن جملة لكل شيء ثمنه من أتفه الجمل وتبقى، ككل الجمل التافهة، تافهة طالما لم يستشعرها أحدنا على جسده. الثمن المطلوب لإنهاء عهد ما يجري في هذا السرير، وبدء عهد جديد بعده، هذا إن كان هناك بعد بعده، هذه هي الضوضاء المفزعة وعذاب الجسد الذي لابد أن يسمني بوسمه لداع خفي. عمود التشنيع الذي تعلق عليه النساء في

الأسواق العامة. المخلعة. لولب الإبهام. الكماشات المتوهجة. شرب الأسيد. السحل بأربعة جياد. السحق والشنق. الغطس والخنق. والاغتصاب. ها هي الحياة تنتقم منها لأنها كانت في طفولتها تمر سريعاً على وصف هذه الفظائع. لأنها كانت تغمض عينيها في السينما حين تراها. لأنها كانت تغادر الغرفة عندما يعرض التلفاز هذه القصص. ولأنها لم تزر معسكرات الاعتقال إلا مرة واحدة. عليها أن تمر آلاف المرات بالعنبر الإسمنتي سيئ الإنارة ذاته، الذي تظن أنها تعرفه، ولا تتعرف حقيقته. الذي ترغم على الرجوع إليه كلما دنت من المخرج. وفي كل مرة أظن بحدسي بأني سأراك خلف الأبواب الفولاذية الثقيلة. ترى ما معنى بحثي عن المنفذ في هذه المتاهة تحت الأرضية، وما معنى خوفي من مشاهدتك هناك. تستحيل الضوضاء صليل سلاسل، سلاسل معتقلين لا حصر لهم.

دائما سيحل الفجر. يظهر طبيب لا بهرجة في هيأته، تناديه الممرضة – ممرضة أخرى من جديد، ممرضة مكتنزة – المرافقة له بالسيد رئيس الأطباء. يريد أن يعرف منها أوضاعها. هل يريد أن يعرف حقاً؟ لا تعرفه، لا تفهم اسمه، على كل الأحوال لا تستطيع الجواب. يبدو أنه يلاحظ أن فمها الجاف غير قادر على النبس بالأصوات. يبلل شفتيها وتجويف فمها بالسليلوز. هنا تستطيع السؤال: لماذا وضعي بهذا السوء.

وخلاف التوقعات يأخذ رئيس الأطباء سؤالها على محمل الجد، يبدو أيضاً أنه لم يباغت، بل ولا يبدو عليه الضيق. يقول: لأن عندك نقصاً في مواد مهمة. البوتاسيوم مثلاً. يتبين من تحليل الدم انعدام البوتاسيوم عندك كلياً. نقص في المغنزيوم، والكالسيوم، والحديد، والفوسفور، والتوتياء. كل المواد المعدنية. علينا أولاً أن نعيد بناء جسمك تدريجياً.

إشراق عظيم، يحملها على التفكر مطولاً. بلمح البصر تتساءل: من في داخلها يتحمل تبعة القضاء على البوتاسيوم و«المواد» الأخرى! يتوارد في ذهنها شبح كلمة على غرار الخلايا القاتلة. لا تريد أن تعرف الجواب الحق ولا يريد الرجل - الذي تسميه المرضة رئيس الأطباء - أن يوحي لها بأكثر مما تريد معرفته حقاً. يبدأ بارتداء قفازات بلاستيكية. يتمزق زوجان، ليس هناك زوج ثالث على مقاس يديه. يقول سيدا للموقف: أحضري زوجاً آخر من فضلك، ممرضة مارغوت، إذا سمحت. وحين يبقى زوج القفازات الثالث سليماً يزيل الضمادة عن الجرح في بطنها، يعقمه، يعيد تضميده بمساعدة المرضة. يسألها عن درجة الحرارة. بملامح كتيمة تناوله المرضة ورقة. يقول بصيغة تقريرية: علينا الانتظار. سأعود حالاً.

هذه عبارة يمكنها الاتكال عليها. تبذل ممرضتان

شابتان جذلتان جهداً لغسلها وتتحادثان خلال ذلك عن سوء المواصلات في المدينة. إذن في مكان ما من هذا العالم ـ ربما كان قريب جداً ـ مازال الترام يعمل؛ إلا أنه لا يأتي إلا نادراً، بحيث تصل إحدى الممرضتين ـ الشقراء القصيرة ـ متأخرة دائماً في المناوبة الصباحية، تقرّعها رئيسة الممرضات يومياً، لكن لا يتوقع أحد منها أن تستيقظ نصف ساعة أبكر بسبب الترام السخيف.

من جسمي تصب عدة خراطيم في أوعية على يمين سريري. كم فزعت عندما شاهدت صديقاً في هذا الوضع. والآن لا أشعر بالفزع. إذن ليس صحيحاً ما يقال إن الفزع الأكبر فيما يجري معنا نحن. إلا أن الأمور قد تختلف كلياً وذلك حسب توافر كم كاف من البوتاسيوم أم لا. فجموع المعتقلين، التي تمر بي من جديد قد تجد البسالة للنجاة إذا كان في أجسامهم كم كاف من البوتاسيوم. ويفقدون الأمل إذا كانوا يفتقرون إلى جميع المواد المعدنية. هياكل عظمية من دون بوتاسيوم، لكنت قلت لرئيس الأطباء: لو أنه رطب فمي من جديد، الأمر الذي نسيته الممرضتان رغم التعليمات؛ من دون بوتاسيوم يشعر الإنسان بنفسه مثل قشرة ضفدع مثقوبة تذروها الرياح.

التشبيه موفق. سالفاً كانت التشبيهات الموفقة تملأ عليها

روحها، أما الآن فسيان لديها. بدأ الضجيج من جديد. لا تني كواكب المعتقلين تواصل سيرها عبر السهوب. صليل سلاسلها لا ينقطع. يتضح لها أن كل واحد يعاقب عبر حواسه الأكثر إيلاماً. السمع إذن. والخوف من ألم الجسم الذي أغواني منذ الطفولة بإجراء اختبارات الشجاعة وتحمل الألم، وجاءني بصيت البسالة. هل أخبرتك بهذا؟.

أنى لنا أن نعلم اتساع عالمنا الداخلي، إن لم يكن معنا مفتاح ـ حمى عالية مثلاً ـ تشرّع لنا أبوابه. عليها أن تمر دائماً بالعنبر المنخفض سيئ الإنارة والتهوية، الذي يبدو لها معروفاً، لكنها لا تحتمل الجهد اللازم لتتذكره تماماً. لا بد أنها رأت من قبل هذه الهيئات في تشكيلاتها الرمادية القاتمة، التي تطالبها بالأوراق، صامتة، بسحنة ليس فيها أي علامة على الاستبداد، إنما بديهية، تثير فيها رهبة مميتة. إذن على المرء أن يثبت هويته حتى هنا، لكن ما الذي تعنيه بـ «هنا». تعثر في حقائبها على ورقة، على بطاقة من الكرتون. ضعفها باد للعيان، لكن الحارسين ـ أو الخفيران؟ أو المفتشان؟ أ، المراقبان؟ ـ يشيران لها بالعبور. وهل من تعبير أحسن من الإشارة في هذا الضجيج الجهنمي، المتواصل.

لاشك في أنها تحت. الأبواب الفولاذية تفتح بكل خفة، تنزلق من دون صوت في سككها ومفاصلها، هذا إن كان لعبارة

على غرار «من دون صوت» معنى ما هنا في هذه الضوضاء. تتنقل بكل خفة أو تنزلق عبر كثير من الحجرات الواسعة، المتداخلة، المتشابكة، وتفهم أيضاً معنى أن تروى الحكايات عن مملكة الظل، العالم السفلي كمملكة للظل، وأن تذكر الأطياف المتوفاة تواً. كل ما علينا هو التوقف عن التحسر عليها. إنها ترى وتسمع لكنها لا تشعر، على الأقل لا يشعر الرسول الذي انتدب ليلتحق بهم، أشهد على هذا.

لا شك أنك تعرف أننا التقينا ذات مرة في هذه العنابر، أنا وأوربان، في مملكة الظل الأرضية تلك التي لا تماثل العالم السفلي الآخر، إنما تشبهه، معبر الترانزيت الأرضي، المبلط مثل المسبح. أم مثل المسلخ؟ مموهاً في صورة المعبر الحدودي. محطة شارع فريدريش. كان أوربان قد ركب الترام نفسه الذي ركبته. حديقة الحيوانات، محطة شارع فريدريش. دفعه ذات التيار البشري على الدرجات نحو الأسفل بمحاذاة هذا العنبر تحت الأرضي، حتى تلك النقطة، حيث يتفرع فيها سيل البشر إلى مسافرين يدخلون الدولة، التي نحن مواطنوها، ويبدأ مجالها الإقليمي في هذه النقطة، ومسافرين يعودون مع وثائق عبور طبيعية إلى هذه الدولة، بينهم الكثير من الشيوخ. أخيراً المزراب الضيق من الدبلوماسيين وموظفي الدولة، الذين نحن منهم، أنا وأوربان. إذن سمح لنا، بل أرغمنا على المضي قدماً. وهنا عرفته، أمامي مباشرة.

تأخر الوقت لأنكفئ، لاحظت من ظهره المتشنج أنه رآني بدوره. هكذا اصطدمنا بعضنا ببعض حرفياً أمام شباك المفتش. ادعينا المفاجأة السارة بالمصادفة التي جمعتنا هنا، «بعد كل هذه السنين!» وبدأنا من فورنا نحصيها. تحديداً هناك لا يلتقي الناس بسرور. لا يفرح أحدنا بإعطاء الآخر نظرة في الوثائق التي تمنحه الحق في الانتقال المؤقت من عالم إلى آخر. يجد أحدنا نفسه مضطراً لتسويغ سفره فوراً، لتعداد المشاغل الضرورية، الأعمال أو المهمات التي توجب عليه إنجازها «على الناحية الأخرى»، يبتسم ابتسامة ساخرة ويراقب شزراً كيف يدفع الشرطي «وثيقة السفر»، بعد أن استلمها من المسافر وقارنها بصورة الهوية، في شق من شباك التفتيش، بينما الشرطي الآخر، متستراً عن الأنظار بعناية فائقة، يجلس ويخضع الأوراق لاختبارات ما، تظل خفية على الواقفين خارجاً؛ لكن المسافر يكشف من حساب مدة بقاء الوثائق في الحجرة عن مدى حرج موقفه أو، إذا اضطر للانتظار طويلاً، عن الاشتباه فيه من طرف الجهات المعنية.

صديقي أوربان من الصنف الأول؛ وعندما راح يحكي ضمن كلامه جرعة مناسبة من السخرية بالذات، عن الملتقيات، التي دعي إليها دعوة رسمية، شدد على كلمة الرسمية، في القسم الآخر من المدينة، وتحدث فيها عن آخر

الأحداث الثقافية في وطننا، حتى سمعنا صوت ارتطام الختم خلف الزجاج المعتم وظهرت وثيقة من الشق أسفل الشباك، تسلمها الشرطي الأول وسلمها لأوربان بعد أن قارن الصورة في جواز السفر مع الصورة الأصلية لديه مرة أخرى. استلم جواز السفر بكثير من الفخر: على الأقل هذه الحواسيب موثوق فيها! ثم انتظرها مدة طويلة من باب الزمالة خلف فرع الضرائب، الذي اجتازه هو من دون أن يضحي بكثير من الوقت. نعم، يمكن الوثوق بالحواسيب، فقد غذيت بالأوامر الإدارية الموجهة إلى شرطة المخفر لإيقافها على الحدود والاستعلام عنها من جهة أعلى للوثوق من عدم وجود خروقات في ورقة مرورها، ما قالته لأوربان وهي تلحق به أخيراً مارة بفرع الضرائب من دون تفتيش، مثله تماماً. ابتسم ابتسامة منكرة، طبعاً حسدها على أن الحواسيب لم تتركها تمر مثله بسرعة؛ إلا أنه كان سيفقد أعصابه لو اضطر لانتظار أوراقه كل تلك المدة. ما إن وصلا إلى مخرج ذلك المباني التي لا وجود لمثلها في العالم، القائمة فوق المخرج والمدخل إلى العالم المخالف حتى تفرقت سبلهما. ذهب صديقها القديم أوربان إلى موقف سيارات الأجرة أمام محطة الترام في شارع فريدريش، بينما مضت هي يساراً نحو جسر فايدندامر، الذي لا أعبره أبداً من دون أن أحيي النسر البروسي المسبوك من الحديد بابتسامة ساخرة، بل وألمسه على قدر الإمكان.

لم أسأل أوربان عن منصبه الجديد، ولم يذكرني هو؛ فقد كان بديهياً عنده أن أتابع آخر تطورات حياته، التي رفعته درجة درجة نحو الأعلى بعد بداية مقنعة ومكشوفة لنا جميعاً، ثم قادت في وقت ما إلى الخفاء وتلاحقت خلف الكواليس بنجاح على ما يبدو. لم ألتفت إلى الخلف؛ لكنني شعرت في ظهري أنه ينظر في إثري.

عندما يعيش أحدنا طويلاً تتكرر في حياته مواقف، حتى لو كان بعضها يتحول إلى العكس. ذات مرة قبل سنوات نظرت في إثره، لا شك أن هذا حدث بعد الاجتماع، اختفى متصنعاً العجلة على الدرجات نحو الأسفل من دون أن يودعها. كانت قد نسيت المناسبة، ما تتذكره هو أنه لسبب من الأسباب كان يشعر بالخجل منها، يحاول التواري عن أنظارها. نعم، آنذاك نظرت طويلاً في إثره وتوجست وقتذاك قلقاً.

يسألها كيف تشعر الآن؟ كان عليها أن تعيد على أسماع رئيس الأطباء: في مستقر هاوية لا أستطيع الخلاص منها، لأني ضعيفة على الخلاص. تقول: الحمد لله. لكن يبدو أنه يثق بنتائج فحوصاته أكثر من ثقته بأقوالها. يتحسس جسمها، يجس نبضها، يرفع جفنيها، يريد أن يعرف آخر قياس لدرجة حرارتها، هنا تضطر المرضة المناوبة كريستينا أن تشير له بأن الحرارة تقاس مرتين فقط في اليوم، ما يدعو

رئيس الأطباء لإصدار تعليماته بضرورة قياس حرارة هذه المريضة كل ثلاث ساعات.

إذا سمحت؛ يقول للممرضة المناوبة ذات الشعر الأشقر الجميل الذي يحيط بوجهها. تسجل كريستينا التعليمات من دون تعليق. لكنها لا تتمكن من إخفاء علامة من علامات الشعور بالمهانة على زاويتي فمها. ماذا، ممرضة كريستينا، يقول رئيس الأطباء. يعلم منها أن هناك عجزاً في عدد الممرضات في الجناح. هي التي بالكاد تستطيع الكلام لكنها تسمع جيداً، لا تريد معرفة العواقب الوخيمة على رعاية المرضى نتيجة العجز في تعداد الممرضات، وهي شاكرة لرئيس الأطباء لأنه يشير على الممرضة بضرورة الحديث إليه في هذا الموضوع لاحقاً. أما للمريضة فإنه يصف آخر إبداعاته: يمكنها شرب الشاي «على رشفات». يلوح أمام عينيها طيف كأس بيرة عملاقة، الرغوة البيضاء تزبد على الحافة، لا تتمكن من إبعاد الظاهرة من خيالها.

تنتظر الشاي وتتساءل إن كانت أياً من الممرضات اللواتي تسمعهن في الممر يضحكن، يثرثرن ويدفعن الأسرة، تدرك قيمة كل دقيقة تضطر فيها لانتظار الشاي. ثم تأتي إحدى الممرضات الشابات، السوداء ذات خال الحسن على وجنتها اليسرى، بالفنجان، تضعه بسرعة على الطاولة وتختفي فجأة

كما ظهرت. يبدو أنها لا تعبأ إن كانت المرأة العطشى قادرة على مد ذراعها اليمنى إلى الطاولة أم لا، إن كانت قادرة على رفع رأسها لتشرب من الفنجان أم لا. ولسعادتها البالغة يدخل شاب قصير الشعر برداء أبيض ويراقب محاولاتها. يقول: أكيد صعب؟ يخرج ثم يعود بعد ثوان حاملاً رضاعة. يصب فيه الشاي، يسند رأسها، يمسك الرضاعة قريباً من شفتيها ويسأل: «هكذا أفضل، أليس كذلك؟» إنها تشرب. على هذه الأرض ليس هناك كلمة شرب فحسب؛ بل هناك عملية اسمها الشرب. تقول: «شكراً». يقول: «إيفلين مازالت تلميذة، في السنة الثانية من الدورة، لا تدرك كل الحيثيات تماماً». اسمه يورغن، في السنة الثالثة وسيقدم امتحانه قريباً. يواسيها لأنها لا تقوى على ابتلاع أكثر من ثلاث رشفات: «لا تتصورين سرعة انكماش المعدة». يذهب.

يصطخب الطوفان من جديد، لهذا الطوفان اسم هو الضنك. ينسحب الوعي، يتداعى. وما أدرك ما التداعي. هذه المرة يصدر ذلك الضجيج الذي يصم الآذان هذه المرة من سرب طائرات. لا تتوقف عن الطيران على ارتفاع منخفض، على رأسها مباشرة؛ لا بد أن يكون لتصوير جميع أنواع القرابين البشرية أمام عيني غاية ما. أم أن غايتها أن أقتنع أخيراً، بعد كل هذه السنين، بعد عقود من خداع الذات، بأن كل ما جرى كان هباء؟ لقد لقّنا أن كل حدث

يصير رمزاً، يبرهن على رمزيته، بأن يسرد على أنه تاريخ. حالما يلغى دور المخرج على مسرحي الداخلي، أبداً بإدراك منابع هذه الصور التي أرغم على مشاهدتها.

أرجوك، ما دمت قد ظهرت فجأة من جديد، قل لي ما هو الوقت... العصر؟؟... غريب، أرجوك أن تجلب لي ذلك الكتاب الصغير الأزرق من قصائد غوته. تقول: غداً. لكني ألاحظ أن ذهنك في مكان آخر. إذن فقد تحدثت إلى رئيس الأطباء، من وراء ظهري. إنه على بعض القلق من الحمى التي أعانيها. يرى ضرورة إجراء عملية أخرى، استئصال خراج الالتهاب الذي قد يكون سبباً في هذه الحمى.

من فضلك أعطني شيئاً من الشاي. تتمكن هذه المرة من تناول أربع رشفات. لسخرية القدر تتوارد كثير من قصائد غوته على ذهنها في هذه اللحظة. تسأل: أي واحدة منها تريدين. آها! هذه خاصة: المستقبل يحجب/ الألم والسعادة / ببصيرتنا نخطو / غير هيابين / إلى الأمام خطوة إثر خطوة – لا أتذكر أكثر. ثم يأتي بيت فيه كلمة «ذرى الأشجار». أنا محتاجة للكتاب.

أتعرف أني اتصلت مرة بكونراد لأني لم أعثر على هذه القصيدة، ولأنه كان الوحيد من بين أصدقائنا من يتذكر كل القصائد التي قرأها في حياته. وكان قد قرأ الكثير. لم

يخطر ببالي أن أبحث عنها بين أناشيد البنائين. كونراد عرف على الفور، كان يحفظها عن ظهر قلب، وقد أعطاني درساً عن علاقة غوته بالبنائين الأحرار. كان هو صاحب الكلمة العليا في أولى حلقاتنا الدراسية عن غوته في بينا، كما كان من بين أوائل المؤسسين للملتقى في قصر فايمار، «المجتمع والثقافة في عهد غوته». لم يكن يتحدث في موضوع آخر عندما كان يرافقني أحياناً إلى غرفتي الصغيرة في بيت نيتشه مساء، ويقول لا شيء أكثر تشويقاً من البحث في كيفية تقييد علاقات اجتماعية معينة للعبقري، وما هي الوسائل التي يتبعها هذا العبقري ليفلت من تلك القيود، على الأقل جزئياً ومرحلياً.

غريب ومدهش هذا العقل؛ لماذا أتذكر كونراد الآن. أقولك لك، كان نزيهاً، لا يقدر على فعل شيء يخالف قناعاته، بل قل: أدنى ما يخالف هذه القناعات. لكان صديقاً لنا اليوم، ما رأيك. مات باكراً. تقول شاردة الذهن: نعم، وتعقب أن علي ألا أشغل نفسي بهذه الأفكار الآن. جلبت لي المذياع الأسود الصغير، تفتحه لتجربه، ينبئنا صوت مذيع نشرة الأخبار بأن وسيلة مواصلات أخرى قد سقطت، إن عدد الضحايا؛ أقول: أرجوك أطفئه. تقول: طيب، طيب. ما الذي جرى لك.
— لاشيء، لا شيء. الحكاية أني لا أتحمل أدنى خبر سيئ، تفهم. تقول: طيب، طيب.

أقول: أرجوك اذهب الآن. تقول أنت: أغمضي عينيك. تعاملي مع الأمر كأني لست هنا. أحاول. تبدأ الضوضاء من جديد. — اذهب — لاحقاً، ربما، سأستغرب من عجزي عن تحمل بقائك أكثر من نصف ساعة. الآن تعوزني القوة على الاستغراب. أو تحمل مجرد الإشارة إلى خبر سيئ. سألاحظ أن هناك درجة من الضعف، ليس بوسع أحدنا أن يتحمل فيها عبء ملليغرام واحد من القلق أو الشفقة على أناس بعيدين عنا جداً، فما بالك بالأقربين. كان عليك ألا تقول لي إن هيلين مصابة بالسعال، حتى لو كنت فعلت هذا من الحيرة كما أرى؛ لأنك بعد رجائي الحار بأن لا تعلمني بأي خبر سيئ لم تعد تدري بماذا تعلمني، والسعال لدى طفل في الخامسة من عمره ليس خبراً سيئاً؛ إلا أني على الرغم من كل شيء ليس بيدي ما أفعله لأن هيلين تسعل وتسعل، ربما أصيبت بالتهاب شعبي قد يصبح مزمناً بكل سهولة، بكل ما له من عواقب وخيمة.

ومع تداعي العواقب الوخيمة في تسقط وسيلة المواصلات من السماء، وتسقط وتسقط، بحمولتها البشرية التي مازالت حية، ثم تتقطع، تنسحق، تحترق، تنهرس، تتمزق بعد ثوان، وليس بيدي سوى أن أتمنى ألا يرغم إنسان أحبه - أو أعرفه مجرد معرفة - أو يقدم طواعية لخفة عقله على الطيران على متن وسيلة مواصلات، وإذا حدث وفعلها رغم هذا فإني لا

أريد أن أعلم، كما أن أقصى أمنياتي ألا أعلم، متى ستأتيني أنت غداً؛ لأنه سيكون علي أن أحسب متى ستنطلق، وستظل طوال ساعة على الطرق التي رغم أنها ليست متأزمة إلا أنها لا تخلو من الخطورة. كما لا أود الآن ـ أعرف هذا أيضاً ـ أن أعلم إن كنت مصابة بالسرطان. سألاحظ أن علينا ألا نقول لإنسان تجرى له عملية جراحية ومازال في منتهى الضعف إنه مصاب بالسرطان، سواء ما ادعاه قبلها. إذن هناك حالات تكون فيها الصراحة والحقيقة قاتلتين.

إذا حانت الفرصة سأقول هذا لرئيس الأطباء الذي يدخل من جديد ليخبرها أنهم اتفقوا على إجراء عملية أخرى لها. لكنهم اليوم ـ وبالأحرى الآن ـ سيخضعونها لفحوصات جديدة. لتعيين مكان البؤرة التي سيستأصلونها تماماً. يدعي رئيس الأطباء قائلاً: الواقع هناك وسيلة جديدة رحيمة ومختبرة تماماً، بينما هو يمسك معصمها طوال الوقت مختبراً إياه وتتساءل هي للمرة الأولى: يا ترى كم عمره؟. لا ريب أنها بشارة خير أن يجلب سن الطبيب اهتمامي، ولو لم يكن اهتماماً بالغاً، فهو صاحب القول الفصل في اللجنة التي يبدو أنها التأمت للتشاور في حالتي. دائماً ـ وفي جميع اللجان التي كنت عضواً فيها ـ كان أحدهم صاحب القول الفصل. نادراً ـ نادراً جداً ـ ما كانت إحداهن. أما أنا فلم يكن لي القول الفصل أبداً، لحسن الحظ لم يكن لي. إلا أن أوربان ـ

صديقي ورفيقي أوربان. كان صاحب القول الفصل في ثلاث جمعيات، كنت أنا أيضاً عضواً فيها. في اللجنة الأولى نطق الكلمة الفصل من دون مهارة أو ثقة بالنفس، فقد كان لنا التأثير فيه بالحجة وكنت راضية عنه، في الثانية تسربت النمطية إلى أسلوبه في إدارة النقاش، وفي الثالثة هان عليه استخدام سلطة القرار. بدأ بخنق الاعتراض وبدأت بتحاشي الاجتماعات. لا داعي للفخر. كم مضى من الوقت على كل هذا. إلى أي مدى غرق.

بعدها ذهب رئيس الأطباء ودخل يورغن، الممرض، حاملاً إبريقاً يتسع لتراً من سائل عليها أن تشربه خلال ربع الساعة التالية استعداداً لفحوصات التصوير الطبقي المحوسب. استنجد بيورغن: لكني لا أستطيع شربه، لاشك أنك تعرف أنه أقصى ما قدرت عليه كان خمس رشفات شاي. فيقول يورغن غير قانع بجوابه: لكن لابد منه، إنه سائل مظلّل. تتصبب عرقاً. إنها غارقة بالعرق بعد الجرعات الأولى، لكن ستحذر من طلب قميص نظيف لأنها تعرف وضعية المغاسل البائسة في الجناح، ستركز على ابتلاع السائل المقزز. إنهم هنا يطالبونني بالمستحيل، ما يعرفه الممرض يورغن أيضاً، إنه يمسك بالرضاعة قرب شفتيها، ويشجعها: رشفة أخرى، وأخرى، عظيم، رائع. انتكاس إلى الطفولة. آنذاك لم تفرض علي واجبات مثل الآن، حيث لا يطالبني أحد بشيء، سوى

أن أتعاون كما عبرت الممرضة المقيمة: لكنك متعاونة، أليس كذلك، وأنا، لحرقة قلبي، شعرت حقاً بنسمة من الواجب، لإرضاء رغبتها؛ إلا أني لا أستطيع شرب هذا الإبريق كله. تستعيد الممرضة الفنجان الأخير، يصب يورغن محتواه في المصرف صامتاً. يقول: للأسف لا وقت لديه ليرافقها إلى الأسفل، إلى القبو، إلى العالم السفلي. إنه على بعض الثقافة، يخطط ليعمل بعد امتحاناته سنة، سنتين في مجال التمريض، لتبتعثه المستشفى من ثم إلى دراسة الطب.

ليس لدى الممرضة إيفلين مثل هذه الطموحات، بل يبدو أن أعظم أمانيها أن تهتم بزينتها، شعرها قاتم السواد، يلتف بعناية فائقة في خصلات حول وجهها، لا شائبة تشوب أصباغ عينيها وشفتيها. تقول: إذن إلى الوسط. ليست موهوبة في توجيه السرير عبر الموانع من دون أن ترتطم بها. تصطدمان بكل عمود، بكل زاوية، بكل باب مصعد، وفي كل مرة تقول الممرضة إيفلين: هوبلا، ثم تدفع السرير هنا وهناك، يتشنج وجه المريضة، تقول إيفلين: يؤلمها؟ نعم، أظن أنه يؤلم. ثم تتابع توجيه السرير. تبين أنها لم تكن قط في جناح الأشعة؛ فهي مازالت في السنة الثانية، وهذه أول دورة لها هنا.

لا تعرف المريضة كيف يبدو المستشفى من الخارج، لكن يتضح لها رويداً رويداً أنه مؤلف من مجمع بنايات مترابطة

عبر عنابر إسمنتية طويلة، تبدو لها لدهشتها معروفة. لا تبشرها بخير. متخوفة تفك حروف الكتابة البيضاء على الأسهم المضاءة، التي تقود إلى الجناح (ب١) أو إلى المعالجة الفيزيائية، كما تمران بالأشعة، لكنهما ـ وعلى ذمة إيفلين ـ لا تبحثان عن هذه الأجنحة. يبدو أن وقت الدوام الرسمي قد انتهى، لا تلتقيان بأحد، تتساءل المرضة إيفلين بصوت مسموع إن كانتا ستصلان إلى هدفهما يوماً ما. تحاول المريضة أن تتغلب على الرعب الذي يتربص بها قريباً من سطح وعيها، هنا تظهر لهما كائنان كأنهما ظهرا في رؤيا، فتاتان في قمصان ناصعة وتنورات صيفية متأرجحة، تسيران في العنبر خفيفتين، تكادان أن تطيرا حباً بالحياة، تثرثران وتضحكان، تستخفان بكل أنواع المخاوف، والمعجزة الكبرى أنهما تعرفان أين يقع الجناح الذي تبحثان عنه وتصفان الطريق إليه بدقة وكياسة عالية. وقالتا إننا تهنا قليلاً. عندما عرجت المرضة إيفلين على السرير في العنبر الموسوم فعلاً بالأشعة: شعرت أن الدموع تسيل على وجهي، للمرة الأولى في تلك الأيام — كم هي، خمسة، ستة؟ منذ أن سمعت طبيبة القرية ـ التي نوديت رغم احتجاجاتها ـ تعلن تشخيصها على عتبة الباب: إنه المصران الأعور! وتتصل فوراً ـ مرة أخرى رغم اعتراضها ـ بسيارة الإسعاف، التي أخذتها على الطرقات الوعرة إلى عالم مخالف. إنها الآن في

الأسفل، بكل معنى الكلمة. ثم تصيح صيحة عظيمة، لأنها ترى غيلاناً تتقدم نحوهما، عربات آلية مربعة ثقيلة الحركة، لها: هل يجوز القول إن على جبينها مؤشرات ضوئية حمراء؟، تومض موجهة السرير وكأنها متوترة الأعصاب. تهتف: احذري. فتقول المرضة إيفلين: آه، تلك الأشياء. بعدها تمر الغيلان بقربهما وهي تخبط الأرض وتصدر الطنين. ما كان هذا! كانت تلك هي الكبائن الموجهة بالحاسوب، إنها تنقل لنا الطعام وأغطية الأسرة، إنها فعلاً مخيفة، لكنها عملية جداً.

عندما دفعت أخيراً إلى غرفة الآلة الضخمة. الغول الأعظم الساكن والمخيف. لم يبق إلا أن ترفع من السرير لتوضع على المحفة. مستحيل جديد، فلا أحد هنا ليساعدهما. تسمع من يقول: الحالة الطارئة، لقد كانوا في انتظارها. تجتر كلمة «طارئة». يريها طبيب شاب إبريقاً: كل ما عليها هو أن تفرغه بسرعة. لكنها لا تستطيع، تقول مذعورة: «يجب»، هذا السائل تحديداً يستعمل مادة مظللة. تضع الفنجان في فمها، يتسرب إليه شيء ما، أكثر بشاعة من كل ما شربته وأكلته طوال عمرها. تعبّ السائل. لم تضع الفنجان من يدها بعد، حتى خرج كل ما شربته قبل لحظة، وكل ما اضطرت لشربه حتى هذه اللحظة، مندفعا فواراً، ووسخ قميصها والشرشف والأرضية لخجلها الشديد. لخجلها وراحتها. وفوراً تبدأ

ممرضتان بتنظيفها؛ بل يظهر فجأة قميص نظيف. تقول: إذن ذهب كل ما شربته هدراً، لكن الطبيب الشاب لا ينوي الاستسلام. الآن سيحقنها بالمادة المظللة حقناً. لماذا لم يفعلها منذ البداية، تفكر، لكنها لا تقول. لماذا عرضوها لهذا التعذيب بشرب «لأسيد». ثم ترد بكل براءة: ببساطة لأن الحقنة هي الخيار الثاني.

سينتظرون مفعول الحقنة. تدع أفكارها تسرح وتمرح سريعة ونفاذة، بحثاً عن شيء تتمسك به، عندما يدفعونني كما يدفع الخبز في الفرن في ذلك الأنبوب الضيق الذي أستلقي أمام بلعومه. للأسف لا أجد ما يواسيني، للأسف تتدفق في رأسي ذكرى تهربت منها حتى الآن، ولن أتمكن من نفضها عن ذهني: ذكرى اختفاء أوربان. الآن - والآن تحديداً - لا أوفق في طرد ذكرى هذا الخبر الذي جاءني عبر سلك الهاتف من ريناتا زوجته، التي كانت قريبة مني في أيامنا السالفة، ثم صارت هي بدورها غريبة عنا لأننا تنصلنا من علاقتنا بأوربان. عرفت صوتها على الفور، من دون أن أفهم ما قالته في خوفها المتسرب في سلك الهاتف: «هانس اختفى». أوشكت على السؤال: «من هو هانس؟»، لكنني تذكرت في الوقت المناسب أن اسم صديقنا السابق الذي يسميه الجميع - حتى ريناتا - «أوربان» هو هانس. اختفى؟ ما معنى اختفى؟ كما قلت. ببساطة لم يرجع إلى البيت، من أين؟ من المعهد.

منذ متى؟ منذ أسبوع. هل يتحرون عنه؟. المفترض بكل الوسائل. وأخذت أجراس الإنذار تقرع في رأسي. قالت إنها أرادت إعلامي فقط؛ كي لا أقرأ الخبر في الجرائد. وكأن الجرائد تنشر مثل هذه الأخبار. وضعت ريناتا السماعة قبل أن تجهش بالبكاء. شعرت بمحبتي القديمة لها تنبعث من جديد، وشعرت بنوع من الغضب على أوربان: كيف يفعل بها هذا؟. وتولد فيّ إحساس غريب بالمسؤولية؛ كأن علي أن استسلم له. ها هو يلاحقني حتى هنا.

ليست المصيبة في أن الرأس وحده يطل من الأنبوب؛ بل إن حبيسه لا يستطيع النفاذ حتى في أقصى درجات الخوف، حتى في أثناء الخوف من الموت، الذي لا يمكن ذكره الآن، إنما هو مجرد حدس بأن الخوف من هذا الأنبوب لا يتولد بالضرورة من رهاب الأماكن المغلقة. إلا أني سأتجنبه، إذا ركزت أفكاري على الأوامر التي يوجها لي صوت نسائي عملي عبر مكبر الصوت من الجهة الأخرى للزجاج الثخين: شهيق، حبس، زفير. صوت ليس لديه أدنى إحساس بمدى صعوبة تنفيذ أوامره البسيطة المرة تلو الأخرى، عشر دقائق حتى الآن، فإني أبصر الساعة الدائرية خلف الزجاج المعتم فوق الباب المؤدي إلى الغرفة المظلمة؛ إذ أميل برأسي قليلاً نحو اليسار، بينما علي أن أعاني بقوة كي أميله نحو اليمين، لألاحق لعبة الخطوط المتعرجة والمعلومات الالكترونية الخضراء

على شاشة الحاسوب الصغير، التي ستكشف معلومات مهمة عما يجري في تجويف بطني لطبيبي، الذي أرجو أن يفهمها، إذا جمعت معاً وقرأت قراءة صحيحة. الحاسوب لا يلتقط الغثيان الذي مازال يخنقني، لكن هذا - كما قال المصور قبلاً - سيرسم حواف ذلك الخراج الباعث على الحمى. ذكر كلمة الحظ وأنا ثابرت على الجد. لن أقول له؛ فأنا بالكاد أجرؤ على التفكير، إني سأرضى بتحمل كل المشاق كي أخرج من هذا الأنبوب. ثم ماذا أفعل بذراعيّ المرفوعتين عالياً فوق رأسي، أين أضع يديّ اللتين بدأتا تتخدران. شهيق، حبس، زفير. أحاول التأقلم مع الإيقاع، أحاول تهريب عدة أنفاس على إيقاعي أنا، أحاول أن أسعل خفية، بحيث لا يضبطني الصوت التقني الحيادي، المشوه قليلاً، متلبسة. شهيق. لا يمكن أن يدوم هذا العذاب أكثر من خمس عشرة دقيقة أخرى، وربما لن يدوم، وإلا أضحى تعجيزاً، جحوداً، تدنيساً. «رجاء ركزي معي» ، لا شيء يفوتهم.

هدوء. هدوء هدوء هدوء؛ لكني أستجمع قواي. أتنفس آلياً بحسب أوامر الصوت، وأفتح السبيل أمام الصور التي تتوارد علي ذاتياً. نحن الثلاثة - أنت وأنا وأوربان - نخرج من قاعة محاضرات الدكتورة لانغهاوس. أرانا ونحن في عز الشباب صورة أصل لتلك الأيام، كما أرى أوربان مبتسماً، ستنبهني لاحقاً لهذا: هل رأيتها؟ ابتسامته الهازئة؟ طبعاً

سمعت ما قلته لأوربان: اليوم كنت جيداً حقاً، فرد علي بتلك الابتسامة «الهازئة»: يقدم المرء كل ما بوسعه. وعلقت أنت، عندما عبرنا جسر زاله، في الظلام: إنه يتصنع المشاركة. إنه يريد أن يكون خفيف الظل، ألا تلاحظين، ويضحك على النص، على لانغهاوس، علينا كلنا، وعليك. لا ألاحظ. لم أكن أود أن ألاحظ. قلت: ابتسامته ليست فقط هازئة، إنها شيطانية. هنا صدرت الكلمة. قاومتها، غير أنها بهذا ازدادت توغلاً في. مرت سنوات طوال قبل أن نتداول الكلمة مرة أخرى، وأنا من ناحيتي، مرت سنوات طوال قبل أن أبوح لك بما اطلعت عليه من سطحية أوربان وضحالته، عندما تصدى لتأويل ذلك النص الذي تخبطنا فيه تخبطاً لا يوصف مقارنة بالآخرين.

كانت السيدة لانغهاوس قد اختارت «الساعة الصعبة» لتوماس مان موضوعاً لحلقتها الدراسية عن أصول النطق. نص صعب، كما أقرت هي. كاتب يكتب عن أزمة كاتب آخر، خدعة يتستر بها على أزمته الذاتية مرة، وبذلك يكشفها مرة أخرى. يصعب قراءته. قائمة على أرضيتين. أتم أوربان القطعة الفنية. نحيت وجهي نحو بيوتات النباتات في الحديقة التي كان فريدريش شيللر يفضل التجوال فيها في أثناء كتابة «فالنشتاين»، وتطل عليها نوافذ قاعة المحاضرات الصغيرة، كي لا يلاحظ أحد تدفق الدموع في عيني، ليس عطفاً على

آلام فريدريش شيللر الروحية والجسدية فحسب؛ وإنما - وهذا هو السبب الرئيسي - بسبب الارتعاش الخفيف في صوت أوربان. أوربان، صديقي العزيز ونقاش النحاس.

آنذاك كنت أحلل كل ما ينطق به، لم أدع للزغردة في صوته مجالاً لإغرائي عندما كان يقرأ كلمات «تركه الإله»، «التيه» و«كرب الروح المقدس» أو جملة: «الألم ... كم شرحت الكلمة صدره؟». كلا. استطاع قراءة هذه الجملة بكثير من الخوار المتصنع، القادر على خداع الجميع إلا أنت. وأنا أيضاً لم أخدع به، أنا التي كانت لي أسبابي الأخرى، لأتابع كل حركة من شفتيه. لم يقدر على خداعي، لا بزيفه، لا، ولا بصدقه، عندما وصل إلى الجملة التي يبدو أنها جاءته في غير انتظار، بل أتته على حين غرة: «الموهبة تلك. ألم تكن الألم؟».

الوقوف القصير الواشي بعد هذه الجملة وذلك النفس العميق لم يكونا هجمة فنية. لم تستطع أنت أن تلاحظهما أو تأولهما تأويلاً صحيحاً، نظراً لأحكامك المسبقة عليه. أما أنا فقد لاحظتهما وفهمتهما أيضاً، لأن السؤال صدم داخلي، كما صدم أوربان، ولأني - على كره مني أو لعدم ثقتي بنفسي - استرقت بكل سكون جواباً يختلف كلياً عن جوابه هو. فهو، ما فهمته، كان قد استوعب الحقيقة القاتلة، أنه غير موهوب،

الأمر الذي كان يتحرق عليه أيما تحرق، وأن لا سلطة في العالم، حتى ولعه الشره، تستطيع رفع هذا العجز. تحسرت عليه؛ بل كدت أشعر بضرب من ضروب الشعور بالذنب، ولهذا أسبلت جفني في مواجهة ابتسامته الهازئة، التي تستر بها، كما كان يفعل دائماً، عندما تواعدنا أمام الجامعة، ولهذا كنت متأثرة، يا عزيزي. لم أتعلم إلا متأخراً أن أتقي جنون نقمة الطموحين غير الموهوبين — وتعلمت خير تعلم.

أتوقف عن التنفس. أخيراً تنطفئ البيانات المتلألئة بالأخضر على الشاشة. لما طقت ثانية أخرى. يخاطبني صوت رجالي جاف في مكبر الصوت. سنأخذ الآن استراحة. لقد أنهينا نصف العمل، وسيركزون الآن على التقاط صور تفصيلية لجزء معين من تجويف بطني، يريدون استطلاعه بدقة أكثر. يسألني إن كنت قادرة على الاستمرار. لدهشتي أسمعني أقول نعم وأحتقر نفسي على إثرها. لماذا لا أستطيع أبداً قول «لا» رداً على مثل هذه الأسئلة. مجرد تخيل ذراعيّ الممدتين عالياً فوق رأسي لعشرة، عشرين، ثلاثين دقيقة أخرى، أو الإقصاء في القفص الشعاعي، الذي على الآخرين أن يتجنبوه. أسمع صوت الباب. خطوات. صوت رجالي، مصور الأشعة. سيضع وسادة تحت يديّ، كي أسندها إليها. تغمرني موجة من الحمد والشكران. لقد لاحظ إذن، دخل، وأغاثني. مازالوا بحاجة إلى معلومات أدق. هناك شيء ما يرتسم. سيشكرهم الجراح عليها جزيل الشكر.

إذن فالجراح أمر مفروغ منه؛ أخطئ في التنفس مرة، مرة أخرى. الصوت الرجالي الشاب يتناول مكبر الصوت، يأمرني بلهجة أبوية أن أحافظ على الهدوء التام. أن أركز معه. شهيق، حبس، زفير. أنجح. أجد الإيقاع من جديد، أتوقف عن التفكير. يطرأ في خاطري سؤال: ما هي سعادة الإنسان؟ موضوع طرحته علينا مدرّسة، كانت تريد أن تقرأ في أوراقنا أن قمة سعادتنا أن نكون ألمانيين.

رويت هذا لأوربان في تلك الأوقات الباكرة، قبل أن أتعرف عليك. حقاً، كنت أعرفه قبلك، ولا شك أني رويت له أموراً أخفيتها عليك لاحقاً. كنا أمام المقصف، في ذلك الزمن المنسي، الذي أغطس فيه الآن بسبب عجزي الكلي، أغطس فيه، لأني عاجزة كلياً عن المقاومة. «كلياً» هي الكلمة الموفقة هنا؛ وإلا لن أستطيع استخدامها بعد، فقد استهلكت بالسؤال المفزع الذي يتردد الآن، بحكم ارتباطه بالأجيال، في كل جملة ترد فيها كلمة «كلي»، أسمع الناس يقولون: «مجنون كلياً، منهك كلياً»، والممرضة تحت التدريب إيفلين تقولها اليوم للمرة الأولى: «لم يكن هناك داع لهذا كلياً». لا أعرف لماذا، وربما كانت محقة؛ قد لا يكون هناك داع أبداً لكثير مما يقال لها أو تكلف به، إلا أن الحرب وحدها كلية. ويقيناً لا داعي لها كلياً.

ما هي سعادة الإنسان اليوم؟. طرحت هذا السؤال على أوربان أمام المقصف، ضحك، قال بنبرة الاجتماعات الهازئة بلهجة سكسونية: «تفضلي قولي يا رفيقة. النضال ضد الاضطهاد؟». ضحكنا، لن تصدق، سابقاً كان للمرء أن يضحك من كل قلبه مع أوربان، وعندها طرأ على بال أحد كلمة على غرار «شيطاني». هنا دخل لورشن وأعلن عن قدومك. رفعت بصري. رأيتك واقفاً على الدرج في سترة مساعد الطيار الباهتة من كثرة الغسيل وأنت تنظر إلي. وهذه كانت النظرة. انزلقت الصورة إلى أرشيفي الداخلي نحو الوثائق التي لا تتلف. الزفير، التوقف عن التنفس. سعادة الإنسان هي كل ما هو خارج هذه الآلة اللعينة، خارج هذه الغرفة المحكمة ببابين فولاذيين.

كم أتمنى الاستلقاء من جديد في الغرفة المعروفة، شبه المحبوبة؛ الأمر سيان، مهما كان عدد الخراطيم المربوطة التي يبدو أنها تزداد مع الوقت. لقد ضيّعت؛ لو أنها لم تكن على كل هذا الضعف لسحرت بقدرة الإنسان على الحياة من دون طعام وطرح فضلات، على الاستلقاء أياماً بلياليها من دون حراك. ها أنت هنا من غير انتظار، تقف إلى السرير، تبدي اهتمامك، لتخفي ذهولك بالقيود التي تراها. أقول: لا، العذاب الحقيقي شيء آخر. أخبرك مرتعشة الصوت عن الآلة التي تتربص في عمق أعماق هذا البناء، الشاشة في

المتاهة. أنت مشوش. ألمح هذا على وجهك. تشكك في الأمر. حالاً ستقول إحدى جملك الاعتراضية على مبالغاتي؛ وإذ بي أسمعك تقول: «ولكنهم الآن يعرفون على الأقل أين سيجرون العملية»، مدعياً أن رئيس الأطباء أكد لك هذا. إذن فقد تحدثت إليه مرة أخرى؟ كنتما على موعد، عجباً!.

في الصباح الباكر، في الصباح الباكر سنوقظك إن شاء الله؛ كان الصوت العذب إحدى أروع خصالها، أمي. صوت إنسان خارق. لماذا تبكين يا زوجة البستاني الساحرة؟

لا تتفاعلين.

إني أسمع.

لا بد مما لا بد منه.

من قال هذا: أنت؟ رئيس الأطباء الذي يعود لزيارتها؟ إذن في الصباح الباكر ينظران إليها كأنما يتوقعان أن تقول شيئاً، أن توافق أو تحتج!! لكنها لا تريد الشكوى مما هو آت؛ بل هو ماض فحسب. تشكو من الشراب، من الكمية الهائلة. من إرغامها على شرب تلك الكمية الهائلة بعد الصوم الكلي. لا أحد قادر على هذا، تقول متوسلة لأجل كل الذين سيضطرون مستقبلاً لشرب ذلك السائل. يقول رئيس الأطباء بلطفه الذي لا يتزعزع: نعم، إنه يتفهم. لكنه هو

ذاته كان في التصوير الطبقي على سبيل التجربة ... يقطع حديثه. تشكره من كل قلبها لأنه يكف وينقطع عن الكلام. «على سبيل التجربة». يلفظ القوسين مع الجملة، إلا أن هذا ليس الواقع؛ أيجوز أن يرتبك رئيس الأطباء ومدير قسم الجراحة؟.

في يدها ذلك الكتاب الأزرق الصغير؛ إنه خفيف، تستطيع إمساكه باليمنى وتقليب الصفحات بحذر شديد بيسراها، ذراعها المربوطة إلى الخراطيم. «هنا تتمايل ذرى الأشجار في السكون الأبدي / بالوفرة / ستجازي العاملين (المتحركين، النشيطين)».

«أرأيت؟، هذا ما كنت أبحث عنه». تقول صيفنا كان متقلباً. ينقطع في عقلي حبل كلمات، متقلبة متقافزة مراهقة متصابية طائشة محسّنة مؤلمة. متجسدة. تسأل سؤالاً لا تطرحه إلا نادراً، لأنه محفوظ لي أنا، فلا بد أن كارثة حدثت حتى تطرحه: ماذا تظنين؟ والآن، وا أسفاه، لا أعرف جواباً مهماً حاولت، همتي ـ كما تعرف ـ عالية دائماً. كانت همتي أقوى ما فيّ، وكثيراً ما أظهرتها، بالمحصلة اكتفيت بإظهارها، فهمتي الطيبة ـ وهو ما لا أستطيع إنكاره هنا ـ استغلت تدريجياً، عطلت وبليت وتلفت. ها أنا الآن مفرغة من كل همة، بريئة أو شريرة، مفرغة من كل نسمة همة،

أستطيع النظر إليك والنفي بعيني، راجية أن تصرف النظر عن سؤالك. فقد جاء متأخرا جداً. أو مبكراً جداً. كنت قبل عهد قريب بذلت جهدي لأجد جواباً، كي لا أجرحك، إلا أني الآن ـ في هذا الفراغ ـ خالية من كل قوة. حتى أني غير قادرة على الاندهاش بأني جررت إلى هنا، إلى قعر هذا العنبر كي تنقشع عني سحابة الهموم والتعب. غشاوة توحي لي أن كل هذه الحفلة المرهقة لم تقم إلا لهذه الغاية. تضمحل الغشاوة، تمتقع، تشحب. ريش شاحب. شبحي. بومي. خيالي. أقول لك: اذهب، رجاء اذهب. طيفيّة. مفزعة. مروعة.

الطوفان من جديد. نهر جارف، عنيف، نهر حمى، قاهر، دؤوب على الجريان. يقول صوت نسائي: عالية، حرارة عالية جداً. أسبح في الماء المتلاطم خائرة القوى، فتطفو كلمتان، تلمسان بقعة صغيرة من وعيي، تقاومان التيار الجارف، تصمدان، الآن بإمكاني أن أفكر مبهورة: أنا أعاني. أحرك الشفتين، أحاول تبليغ ما توصلت إليه من عرفان: أنا أعاني.

يقول صوت رئيس الأطباء حصيفاً: نعم، أعرف.

يا للحظة الحاسمة. أنا أعاني، الآخر يعرف. لا تكلف من طرفي، لا تصنع من طرفه. فقط الحالة، كما هي على حقيقتها.

«ممرضة كريستينا، الكمادات، حاولي بها إذا سمحت. الحقنة للضرورة القصوى».

ولن ينخفض الطوفان إلا ليلاً؛ لكن الليل والنهار مفهومان متحللان، وستطفو الغرفة على هيئة ظل ينيره المصباح الليلي المربع على عارضة الباب بالكاد، ستكون غارقة في عرقها، خائرة القوى ومستلقية في سريرها، الزورق، الذي يتأرجح، لكنه يثبت، المشنقة المعلقة فوقها مع الوعائين الشفافين، مربع النافذة الشاحب تغطي الستارة نصفه، و يميناً على الكومودينا الكتلة السوداء الصغيرة، المذياع، الذي تمد يدها إليه، تديره في وجل، متوقعة سماع نبأ سقوط طائرة من أرجاء السماوات، أو غرق غواصة ذرية على ساحل شمالي، العثور على رهينة مقتولة في صقع بعيد من أصقاع العالم، أو إطلاق النار على إنسان حاول الهرب من صقع قريب في هذا العالم، أي استمرار العالم في مسيرته الطبيعية، التي يطيقها الجميع كما يبدو. متصبرة لكل هذا، مستعدة لإنزال زر الإطفاء الصغير حالاً، يأتي - لحسن الحظ - صوت كمان نقي وناعم، يتبعه آخر مثله؛ لكنه أعلى بدرجة طفيفة، ثم آخر وآخر، ثم يستولي صوت آلة الباص، ثم تتدخل كلارينيت عميقة ومؤثرة، آلتها المفضلة. ها هي الأنغام قد نسجت في شبكة عنكبوتية رقيقة، تمهد لها سبلاً ساحرة، حتى أن بوقاً وجد طريقه إلى بلاد العجائب هذه، يعلو صوته عالياً ويرفع

قلبي معه. لا ينقص كمال السحر إلا البيانو، الذي تمالك نفسه الشريفة حتى يدعى، ثم ها هو يرافق مزيج الأنغام الرائع ويضعه في وحدة كاملة. ايه أيها الناس؛ ما هي سعادة الإنسان؟.

كما أن وجهها رطب، برفق تحاول يد تجفيفه، برفق يغيّر قميصها، والشرشف، والأغطية. الممرضة الليلية الهادئة عديمة الاسم، جاءها الغوث، تمد لها فتاة سمراء يد العون، إنها جميلة، جمالها يكمن في حركاتها الجذلى، النفورة قليلاً. الصبا، الحيوية، الضمير الصاحي، عرفت كيف توحد في ذاتها سمات لا تجتمع عادة. إلا أن ميزتها في عينيها العسليتين الداكنتين، اللتين لم أر لهما مثيلاً من قبل، فأعبر لها عن إعجابي بهما. تبتسم من دون أن ترتبك. تجلس على حافة السرير، تضع يدها على جبيني، أمومية، إلا أنها أصغر مني بكثير، قد تكون في عمر ابنتي. تقول إنها المخدّرة. ستساعدها في الصباح الباكر للدخول في نوم هانئ، وستكون فوق رأسها عندما تعود إلى وعيها. عليها أن تحاول الدخول إلى غرفة التخدير بروح عالية؛ فكما يدخلها المريض يخرج منها. سترافقها وترعاها، يمكنها الوثوق بها. لا، ليس عليها أن تناديها بالسيدة الدكتورة فهي لا تحمل اللقب. إن اسمها باخمان، كورا باخمان. اسم له إحالة غنية بالمعنى. الفتاة لا تفهم هذه الإحالة. تقول إنها مازالت في حاجة إلى بعض

المعلومات الأخرى. أدلي لها بها قدر الإمكان. أغلبها مكتوب في ملفي على كل حال؛ إلا أنها تفضل التأكد بنفسها ما إذا كان المريض حساساً للمادة المخدرة مثلا. تقول كورا، عليها أن تتأكد بنفسها من تحمل المريض للدواء؛ ولكن من قال إن أحداً يتحمل السم، وكل مخدر سم. عجيب. إنها قادرة على الخوض حتى في هذه المواضيع الحساسة من دون أن تثار قوى مقاومة الخوف، فكيف لن أتحمل دواء تحقنني به كورا.

إذن هي ستقودني إلى الظلام، هي دليلي، ستعتني بي، تحرس خفقات قلبي. أشعر بالأمان. تقول: هذه الليالي طويلة جداً. ترد عليها كورا: نعم؛ فلياليها طويلة بشكل آخر، أي إذا كان عندها مناوبة ليلية كاليوم مثلاً. تقاطعها المريضة آسفة لها: ثم عليها أن تذهب في الصباح الباكر إلى العمليات. وكورا تعقب: آخ، العمل يصير روتيناً، ثم أنها ستحصل هذه الليلة على عدة ساعات نوم من دون شك.

بينما أتخيل ليل كورا وأتساءل غيورة؛ هل هي على القدر نفسه من اللطف مع المرضى الآخرين المرشحين لتكون مخدرتهم، وهل هي على المسافة نفسها منهم، أنام. لاشك أني سمعت جملة «لا تتركيني أيتها المرأة السمراء» في الحلم؛ بل لا شك أني قلتها بنفسي، بفرح وحزن في الآن ذاته، ثم

حملتها كورا على أن تتجول معي في أرجاء المدينة تلك الليلة، بالأحرى أن تحلق معي، فقد كنا نعلو بخفة عالية فوق الأرض سنتمتر فسنتمتر. الأمر الذي وجه إلي كثيراً، «لكن ابقي على الأرض»، لم يعد جائزاً لي. بكل خفة حلقنا من نافذة غرفتنا الكبيرة في برلين إلى الفناء الداخلي المظلم، الذي يسقط عليه شعاع ضوء مصباح فقط من الطابق الخامس في البناية على اليسار، من مطبخ السيدة بالوشك، التي تكون في سريرها عادة في مثل هذا الوقت النائم؛ فقد فوضتها إدارة الشركة بمسح درجات البناية الأمامية من المجمع السكني بسعر زهيد، وتطوعت هي بمسؤولية الحفظ على الأمن والنظام في المجمع الرباعي، الأمر الذي لا يسهله عليها - والله شهيد - هذا الجمهور الخليط، ويمنعها من العبور، ولاسيما عندما تأتي على ذكر السكان الجدد، البناية الأمامية الطابق الثالث يميناً، والذين ليس لسلوكهم تعبير مناسب، أو إنه ثمة كلمة واحدة مناسبة، كلمة واحدة وحيدة، لا تخشى السيدة بالوشك من النطق بها (حثالة). هؤلاء الحثالة على درجة من الكسل؛ فهم لا يضعون قذارتهم في حاويات القمامة مثل كل بني آدم، بل يرمونها إلى جانبها. قريباً ستمتلئ الحديقة التي تعتني بنظافتها وترتيبها بالأعشاب الضارة.

«كلهم مجانين»، قلت، عندما انطلق صريخ بين السيدة بالوشك والسكان الجدد فوقنا وأغلقت كل النوافذ. لم أنو

قط التشاجر مع هذه المرأة التي خففت شكها المتضخم فينا - أنا وأنت - تدريجياً بفضل علب السجائر والقهوة من الدكان في الطابق الأرضي. لكن لا الأفنية القذرة ولا النظيفة مشكلتي أنا؛ إنها في هذه الليلة تحديداً ليست مشكلتي، فإننا نحلق أنا والمرأة السمراء، في الضوء الشاحب للقمر الطالع تواً فوق قصر فريدريش، الذي يسميه سكان برلين بسبب تصميم واجهته «نقمة»، نحو شارع فريدريش الذي ينعم أخيراً بهدوء قصير، مروراً بالفراغ يميناً، الباقي منذ أيام الحرب، مروراً بفندق أدريا الذي يؤول قليلاً إلى كوخ مريب، نحوم بكل احترام حول التمثال البرونزي لبريخت في مقعده أمام جوقة برلين الموسيقية، يراقبنا بمكر من زويا عينيه، يتظاهر بالموت؛ تلك الإستراتيجية المجربة التي لا يحق للجميع اتباعها. إما كل شيء أو لا شيء؛ أقول لكورا التي توافقني الرأي وتقترب مني ملتصقة بي كظل جذع من نهر شبري.

على النهر رجل وامرأة متعانقان. كلمة «عصفورين» لن تكون ملائمة لهما؛ فالزوج لم يعد في عز الشباب. أقدر أنهما في مطلع الثلاثينات أو أواسطها؛ إلا أن ثيابهما - هو ما يتضح لي أكثر - تحيلهما إلى عقد أسبق، وهو ما يسهل التكهن به من قبعتيهما. «الثلاثينات»، أقول لكورا فتوافقني الرأي. نحوم بعد مرورنا بالزوج فوق جسر فايدن دامر.

تتوقف الاثنتان أمام النسر البروسي، تتكئان على القاعدة الحديدية، وتنظران إلى النهر. وأنا ملتصقة بالشابة الفتانة بوضع لا تستطيع رؤيتي، الأمر المفهوم بذاته رغم غرابته، أحدق في وجهها وأذعر، ألتفت إلى مرافقتي؛ فأجد كورا قد وضعت إصبعاً على فمها. علي أن أصمت.

أصمت، أتهاوى في حيرة عميقة؛ فالأزمنة تتداخل في فوضى واضطراب. لكن لم الفوضى والاضطراب؟ فأنا لن أبوح باسم اللذين عرفتهما لأني بذلك سأعرضهما للمخاطر، مع مجهولي الاسم هذين أدنو من الساحة الخضراء الصغيرة على الضفة الأخرى لنهر شبري، الذي يحيط بالبناء المسطح، الذي يمنع الدخول إليه سوى على أصحاب الشأن، الذي يسمونه قبو الدموع. أفكر، نعم، طبعاً إنهما يسعيان إليه، يتضح لي بغتة أنهما ينويان الفرار، الوصول إلى بر الأمان عبر هذا المخرج، لحسن الحظ أنه هناك، أرجو أن يكون معهما تأشيرات صالحة، أرجو ألا نكون في منتصف الليل؛ ففي هذا الوقت يكون المعبر الحدودي مغلقاً. تصيبني الصاعقة: هناك على الناحية الأخرى تحدق بالرجل الأخطار نفسها المحدقة به هنا، كونه يهودياً، أين يعيشان؟ وأين أعيش أنا؟ في أي عصر؟. أنادي: كورا. لا أجد كورا. أناديها: لا تتركيني.

لا، لا، يقول صوت؛ إنـه ليس صوت كـورا باخمان، ولا صوت المرضة كريستينا؛ إنه كائن آخر تماماً، يقف وسط غرفتي في ضوء الصباح المصفى، يتقدم إلى سريري، يمد لي يدا عريضة، إسفنجية، يتمنى لي بكل صدق، بصوت فيه قليل من الغنة، صباح الخير، ثم عندما يلتفت ..... إنه كائن مؤنث.... على محورها الذاتي، تتفحص كل قطعة في غرفتي، بما فيها أنا، راضية، تسبقني بالقول: «أنا ألفيرا». تجر ـ مصدرة ضوضاء لا تطاق ـ سلة المهملات الفارغة من الحاوية المعدنية، تحملها إلى الممر لتفرغها، تعود مسرعة لتعيد السلة إلى الحـاويـة، مصدرة الصخب الحـاد من جديد، تقترب مـرة أخرى من سريري، تمد لي يدها من جديد، تقول: «الحمد لله على السلامة، والسلام ختام». أرى التشوه في وجه ألفيرا، أشعر بالضغط الخامل ليدها الثقيلة. رغبة غامضة في الخلق، لم تتمكن من التعبير عن نفسها في جسد ألفيرا لإضفاء مسحة من الجمال عليها؛ لكن نوعاً من المشاركة الوجدانية الخالصة يشع من سحناتها. أقول: «شكرا، ألفيرا، والسلام ختام». — تقول ألفيرا: «إلى اللقاء القريب، إذن». أقول: «نعم، إلى اللقاء».

المرضة كريستينا منزعجة لأنها لم تتمكن من الحيلولة دون انقضاض ألفيرا علي باكراً جداً، لقد أكدت لها وجوب أن تترك لي المجال للنوم؛ لكنها فضولية، تعرفين، لا يمكن

كبح جماحها. تريد الممرضة كريستينا أن تفحص وعائي المغذي بنفسها، تريد أن تعاين الدرينتين الممدودتين من جرح البطن بنفسها، أن تغير الوعاءين اللذين تتجمع فيهما السوائل بنفسها. ثم تسلم أمر المريضة للممرضة مارغوت، السمينة قليلاً، عالية الصوت قليلاً، وتنبعث منها منذ الآن، منذ الصباح الباكر، رائحة العرق عندما تنحني عليها لتغسلها. تتحدث بصوت عال جداً عن نفسها بصيغة الجمع: فوراً سننهي العملية، نقدر نرفع الساق قليلاً، ها؟ نريد أن نبدو جميلين في أعين السادة في العمليات، وإلا كيف؟ بعد لأي تفتح النافذة وتغادر الغرفة، وأتنفس نسيم الصباح العليل بصدر منشرح. تقول الممرضة كريستينا: «والآن جاء دور الحقنة المعروفة، مباشرة ستنتقلين إلى عالم سعيد وجميل. لا تنسي أبداً، هذه آخر مرة تدخلين تحت مباضع الجراحين». لم يبق عليها إلا أن تضع غطاء الرأس، تخفي شعرها تحته، شعرها الذي قصه الحلاق قبل قليل قصير جداً لحسن الحظ، ولسوء الحظ فإن الممرضة إيفلين المزوقة والمهندمة على أحسن وجه منذ الصباح الباكر، هي من تدفع سريرها، تصدمه بكل زاوية تصادفها، نحو جناح العمليات.

لعمري، لا داعي للشعور بالمداهنة؛ فدور العمليات لا يحدد على أساس المكاسب والجدارة، إنما حسب خطورة الحالة. تشغل نفسها قليلاً بمعنى هذه الجملة ذي الحدين. ثم تأتي

باللون الأخضر، الأخضر البحري الغامق، ممرضة العمليات. هكذا تعرّف بنفسها: «أنا ممرضة العمليات». وتبدأ بالحديث معها في جمل خفيفة قصيرة. تسمع نفسها تجيب بكلمات شحيحة، بحكم بعض الخبرة بهذه الأحوال. تسمع من خلال طبقة شمعية تزداد سماكة أن الممرضة بدأت عملها اليوم للمرة الأولى بعد توقف طويل، إنها أخذت إجازة مرضية عدة أسابيع. التهاب الكبد الفيروسي، أصيبت بالعدوى في غرفة العمليات. أن عندها طفلين وأن زوجها ميكانيكي. تقول المريضة: «والله!!»، و«فعلاً!!» و«حياتك حلوة».

وترى كيف تناور الممرضة، مديرة ظهرها إليها، مع الخزانة الزجاجية، تتناول حقناً بحركات رشيقة ومتقنة. يدخل رجل من الباب الذي كتب عليه غرفة العمليات رقم واحد، مرتدياً الأخضر الغامق، يضع غطاء أخضر صغيراً على شعره الذي بدأ الشيب يغزوه كما يلوح من الصدغين، يريد أن يسلم عليها قبل أن تنام، إنه رئيس الأطباء، يضغط على يدها، ينظر متسائلاً إلى الممرضة؛ فتقول هذه: «كل شيء على ما يرام؛ تكلمت معها». تفهم المريضة أن أحد واجبات الممرضة هو الحديث معها، ما لا يزعجها. يقول رئيس الأطباء: «جميل، ستنتهي الأمور على خير ما يرام». تقول: «بالتأكيد. وإلا كيف! تفكر بمسحة من السخرية.

وصل غزو كلمة «خير» إلى غرفة العمليات، ألم تروّض طفولتنا على قافية خير خير خير؟ مرة صرخ في أوربان: خير؟ أنت بلهاء ؟ (خير) هي الكلمة الأكثر برجوازية على الإطلاق. إن عبارة غوته ليكن الإنسان نبيلاً، غوثاً وخيراً؛ لهي القيثارة المشروخة المغرقة في البرجوازية، إنها الكتاب المقدس للبرجوازي الصغير، يستعين بها للتحول إلى إنسان خاو أو إنسان متعالٍ. رددت عليه ببعض الخجل آنذاك؛ لكنه عندئذ سيكون قد تخلى تماماً عن كلمة «خير». مثلك. مثلنا، صححت نفسي. وأجاب أوربان، بشفتيه الرقيقتين: «انتبهي لما تقولين».

المرأة السمراء مسربلة بالأخضر البحري. تقول المريضة متلعثمة قليلاً: كأننا كلنا في حوض سمك تحت الماء. تقول كورا: «يتصور أحدنا هذا»، وتسأل إن كان «كل شيء تمام». لغة الشباب. تقول المريضة: نعم، كل شيء تمام. بالمناسبة، لقد حلمت بك. شيء حلو، تقول كورا وتضحك، إلا أن عينيها العسليتين واللامعتين لا تضحكان. ممرضة العمليات تخبر كورا أيضاً - بينما هي تعقد الكمامة تحت رأسها - أنها تحدثت مع المريضة. المرأة السمراء تومئ. تقول: «لنبدأ العمل». فجأة يدخل الصورة كائن أخضر آخر، رجل يدفع المحفة من الخلف، السيدتان ترفقانها على الجانبين، تشكيل منضبط.

تفتح أبواب غرفة العمليات، المصابيح المعدنية الكبيرة المبهرة في السقف، ثلاثة رجال مقنعين بالأخضر يرفعون أياديهم. إنها عملية سطو. يتحدثون عن حدائقهم. يقول أحدهم: «ورود من كل الأصناف تقريباً». إنه رئيس الأطباء. يا للروعة، ورود. يسأل الثاني: « من دون سماد صناعي؟». ويدفع الثالث عن نفسه: «حديقة؟ مستحيل». في هذه الأثناء يرفعون أيديهم عالياً وكأنهم ليسوا الجناة بل الضحايا التي تستسلم لا حول لها ولا قوة. بينما يتحدث رئيس الأطباء عن الورود، يراقب بدقة كيف يحمّلونها (هكذا قال الممرض: هل نحمّلها على الطاولة؟). ثلاثتهم على طاولة العمليات ونقلوها بذلك إلى تلك المنطقة، حيث لم يعد أحد يتحدث معها، إنما فقط عنها: هل هي هادئة؟ ـ هادئة ـ هل نبدأ؟ نبدأ. بينما يربط الممرض والممرضتان ذراعيها وساقيها، تهمس هي للمرأة السمراء: «آسفة، لقد نسيت اسمك الأول». تهمس لها الأخرى: كورا. نعم، لا بد أنه كورا. تهمس كورا في أذنيها: «الآن سأحقن زندك الأيسر وبعدها تدخلين في نوم عميق. أحلاماً سعيدة».

هل أتدلى للمرة الأولى، أم سيحدث للمرة الثانية، الثالثة والرابعة في الأيام التالية، أن أتدلى في هيئة شاب أشقر مرح من نافذة شقتنا في شارع فريدريش التي تنسد خلفي فوراً وإلى الأبد، بحيث أقف بشعر يلوحه الهواء، مرتدياً بنطال جينز وقميصاً فاتح الزرقة، في الخارج على السور الضيق في محيط البناية ليس لي إلا حيز ضيق، ضيق جداً أتمسك به برؤوس أصابعي، وأتحرك عليه سنتمتر فسنتمتر نحو اليسار باتجاه شرفة عيادة الجراحة العظمية، التي تبدو لي - أنا الذكر أو الأنثى - الكائن الذي يبدو أن أحداً لا يلاحظه معلقاً فوق حركة المرور الصاخبة في شارع فريدريش، أمل النجاة الوحيد، وإن كان شبه مستحيل. ينقطع المشهد بفظاظة. لن يكون هذا الذي يصيح باسمي عالياً مخلصي؛ إلا أنه حررني بالتأكيد، فقد تسنى له إيقاظي. طبعاً أنا أسمعه؛ فصراخه عال كفاية، كل ما علي أن أفعله الآن هو أن أرفع الجفنين رغم قوة العطالة الثقيلة كالرصاص، بينما لا يتوقف هو عن الصراخ في متسائلاً إن كنت أسمعه. نعم، آه يا ربي، ليكف عن الصراخ، أنا أسمعه. أخيراً أنجح في تحريك رأسي بإيماءة ضعيفة، حركة يكتفي بها الرجل على ما يبدو. أراه الآن. إنه ذلك الطبيب الذي لا يريد أن يملك حديقة، الطويل، نصف الأشقر، ذو العينين الزرقاوين زرقة الماء. استيقظت. هل

ننتظر قليلاً؟ ننتظر قليلاً، يأتي صوت ثان عبر زجاج النافذة. أدرك أنها غرفة الإنعاش. حيز ضمير الغائب. جففي وجهها إذا سمحت. بللي شفتيها. هل يكفيها المغذي؟.

أنا، في هيئة ذلك الشاب الأشقر على السور في الخارج، لم أدن ولا ميلمتر واحد من الشرفة عيادة الجراحة العظمية. إما أن أخلد من جديد إلى النوم، وهو ما أتمناه من كل قلبي، أو أتملص من حبس جسدي. يبدو أنهم اتفقوا فيما بينهم على ألا يدعوني أنام قبل أن أنطق بكلمة، الأفضل كلمة «نعم». هل صحوت؟ ردي رجاء. أنا وذلك الشاب عند السور وحدنا نعرف كيف تندفن الكلمة في الجسم، نعرف كم من العقبات يعبرها الصوت قبل أن يمر بالحلق ويغادر الفم مع النفس. تحت النحنحة والصرير أخرج صوتاً، يأخذونه، هم ذوو النية الصافية، على أنه «نعم». نعم لقد صحوت، لكن لا أريد أن أصحو والآن دعوني أنَمّ. بلمح البصر أجدني على السور كأنه مكاني المفضل أبداً على الأرض. وها أنا معلقة، متدلية، مدفونةً في جسم شاب جميل، لكنه إذ أدقق النظر في وضعي من دون انحياز فإنه محكوم عليه بالموت. ينبئني صوت: «لا أمل له بالنجاة». أسأل: «من، أوربان؟» وأسمع الصوت: «من غيرُه؟». إنها ريناتا. متى تحدثت إلي بهذه النبرة. لا شك أن هذا حدث عندما قالت لي في الهاتف، صامتة، إنهم لا يعثرون عليه ... — كدت أسألها، مترددة:

«هل تريدين أن تأتي لزيارتنا؟ فنحن لم نلتق منذ سنوات».
غريب، كيف يمكن للمرء أن يتحاشى الآخرين في هذه الدولة الصغيرة. استمرت الغربة حاجزاً بيننا، كان حديثاً مرهقاً، لكني علمت أن أوربان قد ذهب، بعد اجتماع عقده في معهده ونقد فيه نقداً حاداً، بهدوء ظاهر إلى سيارته في المرآب وانطلق بها. ذات مرة قالت ريناتا: «لم يعد له أدنى فرصة». فهمت، لكن لم أنبس ببنت شفة. في أجزاء من الثانية أدركت كل شيء، بصرت كل شيء سلفاً، وعرفت أن هذه هي فرصته الأخيرة تحديداً ..... الهرب، الاختباء. شعرت بمحبتي القديمة لريناتا تنبعث من جديد، وشعرت نوعاً من الغضب على أوربان: «كيف يفعل بها هذا؟.

بعد مرور وقت طويل على كل هذا أخبرتني ريناتا أن أخاها الطبيب أخبرها بعد إحدى العمليات التي أجريت لي: «صديقتك هذه، لا أمل لها!! .... إنها....». ريناتا شرعت تبكي وتصرخ فيه: «إن كانت هناك نسبة واحد في المئة من الأمل للشفاء من هذا الداء فإني، أنا صديقتها، أريد أن أكون نسبة الواحد في المئة تلك، التي ما زال فيها الأمل». وعندها رفع أخوها كتفيه غير مبال قائلاً: «كما تريدين». فهو قد رأى على كل حال قبل قليل فتى في الخامسة عشرة من عمره يموت بسبب انتشار التقيح في بطنه. لم تعد تفارقني صورة هذا الفتى ابن الخامسة عشرة بعد أن بلغني خبره، كأنني مدينة له بشيء، مدينة له بحياته، كأني نجوت بدلاً عنه.

هجوم استباقي على وقت سيكون فيه لكلمة «وقت» معنى، سيمضي فيه الوقت، ينحزم وينتشر، وقت سيكون فيه قضبان وقتية، يكون فيه خسارة وكسب للوقت، يكون فيه مراحل وقتية، مواعيد وفترات زمنية، قياس زمن وتأريخ، وقت مستقطع ووقت الانهيار، يكون فيه قبل وبعد، أيام تتألف من صباح ومساء، فترات وآناء، وقت استفرد فيه بنفسي مؤقتاً، ثم أعود لأدخل الوقت الراهن، حاضرة بين الحين والآخر، أصل دائماً في الوقت المناسب، أو غير المناسب. أترك فيه لنفسي وقتاً أو أدرك أنه الوقت الأنسب لأستدرك الموعد المناسب أو أتدخل في الوقت غير المناسب، وقت أشعر فيه أنني مستحاثة من ما قبل التاريخ، أؤمن فيه بالوقت الجديد أو أؤمن على العكس بحلول نهاية التاريخ.

أما الآن فليس هناك لا عصور قديمة ولا ما قبل التاريخ، لا الزمن الماضي السعيد، ولا الزمن الآني المريح، لا وقت جديداً، لا فترة اختبار ولا مجريات آنية. غرق كل وقتي في انعدام الوقت، يضيع وقتي مثل اللاوقت. انزلقت من غرفة العمليات على سريرها في فراغ زمني، يملؤه الدغش الباهت والرؤى، لكنه لا يخضع لحساب زمني؛ بل لا تقدر حتى الوجوه التي تتناوب عليها والأصوات التي تسمعها على ترتيب زمنها. لم يعد هناك وقت مناسب ولا تفويت فرص. كل ما هناك تحرير من مجريات الزمن، لن يشك في هذا

إلا من لم يعش هذه التجربة، إلا من لم يجرجر نفسه بآخر قواه على درجات الزمن نحو الأمام؛ فالتشبث بسور ضيق، ضيق جداً، إجهاد، بل مستحيل، التقدم مليمتر واحد يتطلب كثيراً من القوة. خرجت من فخ الزمن واهنة، عديمة القرار والمسؤولية. قد تقال بعض الأشياء بمعزل عن الوقت: «نعم، أنـا مستيقظة، نعم، عندي أوجـاع، لا، إنها تطـاق». لكن لا يمكن سرد حدث من دون زمن. لقد توقفت عن السرد عندما بدأت أعلم، أسأل، أحكم، عندما بدأت أدعي، أعي وأعلل، أستدل وأكتشف، عندما بدأت أقيس، أقارن وأفعل. عندما بدأت أحب وأكره.

ما لم يتوقف جسدها عنه هو التعلم؛ إنه يواظب على التعلم من دون انقطاع في هذا البرزخ الشاحب رغم أنفها، يتعلم الاستلقاء في السرير أياماً وأسابيع من دون حراك، يتعلم الاحتفاظ بالذراع ثابتة، الذراع الموصولة بوعاء المغذي عبر الخراطيم، يتعلم عدم تحريك الرأس إلا نادراً ليكسب قليلاً من الراحة، يتعلم التغذي بالسوائل التي تتدفق في أوردته. يتعلم البقاء على قيد الحياة في وضع صعب، بينما يتعطل العقل، ينطفئ، هذا كي لا يعترض طريق الجسم، ويركز كل قواه على إشاراته، باستثناء وحيد (الذكرى)، أو بالأحرى أصنافها البدائية. هذا لا يعني أن لي الخيار في تناول ما أشاء من ذاكرتي؛ إنما هي كتل ذكريات تمر بالجبل الجليدي

الذي أقف عليه في بحر اللاوعي، من دون دعوة أو انتظام. مثلاً ذلك الضوء في ممر الشقة وهي تضع سماعة الهاتف الحمراء وكلمات ريناتا ترن في أذنها: «هانس اختفى». ضوء الضحى المتسرب من باب الغرفة الكبيرة المفتوح على الممر، ما زلت أذكر أني فكرت، لقد تنصتوا على هذا الاتصال أيضاً بكل تأكيد. ثم إنهم يعرفون الخبر على جميع الأحوال. وأخيراً أليس علي أن أبحث عنه؟ قلت حاسماً: «لا».

لاشك أن هذا سيحدث فيّ صراعاً يتواصل من ثانية إلى أخرى، يتخذ جسمي إجراءات دفاعية ضد الجراثيم العدوانية التي بحث عنها الأطباء في المخبر بهمة ونشاط، والتي سيقول مختص علم الأمراض إنها «خبيثة جداً». بل سبق أن قال؛ لكن ليس لها. في وقت من أوقات هذا الزمن المتداخل يقول رئيس الأطباء: «نظن أننا عرفناها الآن». فلا غرو إذن أن تخز فتاتا المخبر – إحداهما طويلة وشقراء والأخرى قصيرة وسمراء – كل هنيهة حلمة أذنها أو أناملها وتمتصان عدة قطرات من دمها، أو يعبئ الطبيب المقيم – ذو الذقن السوداء المحيطة بالفم والفك – أنابيب كثيرة بالدم الذي يسحبه من شرايين زندها. يقول معاتباً ومستغرقاً في التفكير إنهم «يحتاجون هذه العينات تحديداً». آه لو أن معاون رئيس الأطباء الذي لا يريد امتلاك حديقة، الرجل الطويل الشاحب الخالي من اللون، الذي تتمكن من

تحديد مرتبته في هرم الأطباء، وتتنسم فيه بعض الارتياب، الذي لا يشي لها بشيء، بل ولا يهمها في شيء؛ آه لو أنه لم يتلفظ بهذه الجملة: «المهم أن نحصل على الدواء في الوقت المناسب».

ففي كلامه استباحة لانحرافها عن الوقت، لزمنها الحرام، لا تطيقها بسهولة، ما معنى «في الوقت المناسب؟»، ومن أين يجب الحصول على الدواء؟. بينما يقول الطبيب المقيم مستعداً للتوضيح بكل سرور: «علينا أن نحاصر دوافع المرض». ويؤكد رئيس الأطباء الذي على الغالب صار يظهر قرب سريرها في فترات متلاحقة، ويقسم واثقاً أنهم وجدوا الدواء الصحيح ويبذلون كل جهودهم.

سألاحظ أنهم لا يعيشون على التراب نفسه الذي أعيش عليه أنا. كانوا يشاهدونني مطروحة لكنهم لا يعرفون - بل إنهم لا يحدسون - أين أنا في الواقع. وكانوا يقفون على الضفة الأخرى لذلك النهر الذي لا اسم له فبالكاد تصلني أصواتهم، وصوتي لا يصلهم بكل تأكيد. وكنت استلذ بشيء من التشفي في هذه اللحظة، حين تسقط فيها الأقنعة، يسقط الزيف، ولا تبقى إلا الحقيقة العارية؛ إذن هذا هو الواقع. ويجول في خاطري أن التيار جرني إلى هذه الضفاف لكي أعاين هذه الحقيقة. أو أحاول معاينتها. أتحرك الآن في مجال الجذور. ما أراه الآن صالح، وسأنساه في الحال.

هل يتكلم المريض تحت التخدير؟ تسأل كورا الجالسة على حافة السرير. وهذه تفهم قصدها، وتعقب: تقصدين إن كان المريض يفشي أسراره؟ لا بل لا أستطيع القول بكل ثقة إن كان المريض يحلم. نحاول أن تكون الجرعة على قدر مناسب؛ كي تسبحي وتطوفي على الحدود، غير مخدرة تماماً؛ لكنك لست على وعي تام. أقول: «أعرف»، أي محلقة. كورا لا تتذكر طيراننا الليلي، تدعي أنها لم تكن في برلين إلا نادراً، وأنها لم تكن قط في شارع فريدريش، وأنها النموذج المثالي لابنة الريف الساذجة. ثم تختفي. أتمكن قبل اختفائها من السؤال، ربما كان صوتي منخفضاً جداً: ما هي سعادة الإنسان؟ هنا، كأن السؤال هو كلمة السر.

يطرأ في الظلام وجهٌ شابٌ، فاتن، نابض بالحياة. لكني أعرف هذا الوجه؛ إنها المرأة التي كانت واقفة مع الرجل على نهر شبري، ثم سارت على جسر فايدن دام تلك الليلة عندما كنت أحلق مع كورا بمحاذاة شارع فريدريش، إنه وجه خالتي ليزبت عندما كانت شابة، قبل خمسين عاماً، عندما كنت طفلة. ألم تمت؟ ولماذا تتوجه نحو البناية المجاورة، التي دمرتها قذيفة، وارتفعت بذاتها من جديد في الفراغ الذي تركته. أتبع خالتي ليزبت وهي تصعد الدرجات. ألم تصب هذه الدرجات! إنها مرتبة، مغطاة بالسجاد الأحمر، السور من الخشب اللماع ويتلألأ عندما تظهر الشمس في نافذة

الممر، الذي مازال محتفظاً بألوانه الفاقعة الفاخرة. إذن الحرب لم تندلع بعد. أتبع المرأة الشابة التي كانت خالتي ثلاث درجات إلى الطابق الثالث، وأراها تقف أمام لوحة طبيب متواضعة، تقرع الجرس: د. طبيب بشري الفونس لا يتنر. يفتح لها الباب رجل برداء أبيض. أراه يرحب بها ويقود الشابة بكل أدب إلى غرفة الطبيب. لا يعمل في عيادة هذا الطبيب مساعدون. يدعوها للجلوس والكلام عن دواعي التشرف بزيارتها، ويترك لها مجال الحديث عن أوجاع متعددة الوجوه، وعن أن طبيبها الدكتور ليفي يقضي إجازته السنوية.

يقول الدكتور لايتنر إنه سبق له أن رآها أحياناً تتمشى في شارع فريدريش، لا شك أن عنده الكثير من وقت الفراغ حتى يتمكن من النظر إلى الشارع من نافذته المطلة عليه. لقد أدرك جوهر خالتي؛ إنها امرأة لا تعرف السعادة. يسألها إن لم كانت على علم بأنها قد تتعرض لمنغصات بسبب زيارتها لطبيب يهودي، وتجاوب هي خفيفة وحالمة: «من قال هذا؟»؛ فطبيبها حتى الآن كان يهودياً أيضا، لكنه الآن في إجازة. والطبيب لا يتنر الشاب - أو يبدو لي شاباً - يقول مع ابتسامة رقيقة: «إن دكتور ليفني ليس في إجازة؛ إنه لن يرجع أبداً». لكن ليزبت التي هي في مطلع الثلاثين تكتفي بالقول: «هكذا إذن؟ إذن ستعالجني أنت يا دكتور، أليس كذلك؟. فأجابها

الدكتور لا يتنر بلطف غير متناه: «إذا كنت تشائين». فترد ليزبت: «أجل أجل»؛ أي أنها تشاء.

وفي خضم هذا المشهد الذي يتشكل أمام عيني قادماً من مصدر موثوق، وأنا أرى الزوج المعرض للهلاك، كان لدي أسباب عميقة لأتصبب عرقاً، عرق الخوف؛ ففي الطابق نفسه الذي يسكن فيه الطبيب اليهودي الدكتور لايتنر ـ والذي يحظر عليه معالجة الآريين ـ تسكن تلك الجارة التي تتحين الفرصة لتعلمه أن يهودياً مر قبل قليل في الشارع وعلى رقبته لوحة كتب عليها: «ارتكب الفاحشة بامرأة ألمانية»، وتسأله إن كان يحسب هذا الحساب. ويرد الدكتور لايتنر ـ الذي لا تتزعزع ابتسامته ـ على المرأة بأنه يحسبه.

أقول له بعد عقود من الدهر: نعم، ولكن ... ويقول لي إنه آنذاك ما كان متمسكاً بالحياة؛ لكن خالتي ليزبت لم تعبأ بكل التحذيرات، كانت سعيدة جداً. ترتبك ابتسامته قليلاً، ويعقب: «بالمناسبة تلك الجارة لم تكن تتجسس عليهم». وأنا غارقة في العرق.

هل حل الليل من جديد؟، هل نمت؟ هل أنا نائمة الآن؟

لي أن أتخيل: ليزبت في الطابق الأرضي والدكتور لايتنر في الطابق الثالث من البناية ذاتها، الصعود والنزول على

الدرجات. أسمعها تقول: «عليها أن تحمل له الطعام، وكذلك الحلو. أقشعر ذعراً».

ها هو رئيس الأطباء في زيارة من زياراته المتكررة ليؤكد لها إيمانه بأنهم استأصلوا «الخراج»، وأن الحمى لم تعد عالية جداً. تومئ لكل ما يقال لها، وتوافق عليه، وتقول إن وضعها «ليس سيئاً». يبدو أن رئيس الأطباء ليس مقتنعاً؛ إلا أنه يومئ ويذهب. بالمناسبة قد تتمكن من استغلال زيارات ألفيرا مرة واحدة يوم في الصباح الباكر، كوقفة شعرية في حاضرها السرمدي. إلا أنها لا تتذكر الآن عدد المرات التي رأت فيها ألفيرا حين تستيقظ. ألفيرا التي تلتف على محورها الذاتي، وتتفحص في التفاتها كل قطعة بدقة نفاذة، وإن كانت قد أخبرتها منذ اللقاء الأول أو لاحقاً - اليوم أو أمس - عن خطيبها الذي تعيش معه في غرفة في الملجأ، وتقضي معه مساءها في مشاهدة التلفاز بعد تناول العشاء بهدوء، ثم تتناول يدها وتقول مباغتة ومن دون تمهيد كل مرة: «إذن والسلام ختام، أتمنى لك الشفاء العاجل».

ثم يحل النور بعدئذ، مع أننا ندخل أطول أيام السنة. على كل حال كما تزعم أنت؛ يبدو أنك لا تستطيع الحديث إلا عن الطقس المتبدل، فأنت تشكو من العواصف الرعدية الكثيرة على الطريق، ومن الخسائر التي ألحقت بالمحاصيل

الـزراعيـة نتيجة غـزارة المطر أو نـدرتـه، بعد أن التقيت برئيس الأطباء من جديد مصادفة كما أعلم. فلا غرابة إذن أن تستخدما المعجم نفسه لوصفي ووصف وضعي، في إدمـاني على الانسجام، ليس بيدي إلا أن أتوقع خيراً من توافق أنغامكما. ثم إنك تقف إلى النافذة وتسرح بصرك في الخارج، تجد المنظر جميلاً، لم أفكر حتى الآن بالجرأة على السير عدة خطوات إلى النافذة، والوقوف هناك للاستمتاع بالمنظر الجميل.

عندما أرى ألفيرا في المرة التالية لست واثقة إن كنت أرى طيفاً آخر ينضم إلى أطياف حياتي الحلمية، التي تلح على اختيار درجات بنايتنا مكاناً لأحداثها. من جديد تلوح السيدة بالوشك مرتدية قبعتها الباسكية الخضراء بلون السم، «الجليلة على الوصف» كما تقول أنت، وتصر على مطالبتي بالنظر إلى تلك القذارة، أعرف سلفاً أنها تعني النقرة النتنة في مدخل البناية التي ستضطر إلى شطفها، وهو ما لا أحسدها عليه؛ مع أن المعقم الذي تستخدمه ينتن أكثر من البركة، ومع أني لا أوافقها تماماً على أن الحثالة من الطابق الثالث وحدهم يلحقون بها هذا الحيف، أنبس لها ببالغ الحذر أن السكارى في حانة آدريا جعلوا من ممرنا المفتوح مبولة لأن الباب مخلع.

لا أريد أن أخسر حظوتي، التي كسبتها بكثير من التملق والتزلف. سيربيروس الكلب الحارس على الجحيم، أتذكر ولا أنوي محاسبتها على ضيوفنا الذين صرفتهم من الباب مدعية أننا لسنا في البيت، وفكرت في سري: رب ضارة نافعة. فمن الوارد جداً أن يكون بين الذين ردعتهم السيدة بالوشك بعض أولئك المجهولين الذين اعتادوا على طرق باب شقتنا طوال النهار وآناء كثيرة من الليل ليدسوا في يدي مصنفات سميكة، أو يطلعوني على مشكلات غالباً ما تكون غير قابلة للحل، وتتركني في حالة القنوط، حالة لم تحل بيني وبين دعوة ذلك الزوج الشاب، الذي رن جرس الباب ذات مساء للدخول أو الإصغاء حتى لذلك الشاب الفارع النحيل، غريب الأطوار قليلاً، الذي جاء ليهينني لأني جاوبت على رسالة طنانة، سلمتني إياها أخته، جواباً معتدلاً بدل أن أنادي بالعمل ضد الدولة.

عندما أجبته في البداية بلطف وسعة صدر، تابع هو الكلام خافض النظرات، فيه خجل معقد، احتقان وبعض الشماتة، مع ردود أفعال هوجاء، بينما ترفع إليه أخته القصيرة نظرات إكبار وإجلال. حين انتهى من الكلام سألته بجهامة وعدوانية أكثر: ما الذي علي أن أفعله برأيه؛ أن أقوم على رأس حركة لم تتكون بعد، ثم أطلق سراح الناس الذين سيعتقلون بسبب هذه الحركة من السجن، ربما هو

وأخته أيضاً. وعليها اتهمني بالجبن مستخدماً كلمات مهينة، ثم اعتذر من فوره بشيء من الرهبة والارتياع. أما أنا فقد استغللت الفرصة ـ متظاهرة بالمزيد من الغضب ـ لأطرده هو وأخته التي غدت بدورها هوجاء.

حدث وحيد، يلاحقني إلى هنا أيضاً في هذا العنبر الذي لم أجد منه منفذاً بعد، وانخفضت درجة حرارته؛ فراحت هي ترتعش برداً، تنتفض، فيصرصر السرير وتصطك أسنانها، بحيث تصيح المرضة إيفلين، التي تظهر أخيرا في الباب بعد أن رنت جرس النجدة طويلا: يا الهي، ما كان ينقصنا إلا القشعريرة وتختفي لتدخل المرضة كريستينا مسرعة، تتناول الغطاء من السرير المجاور الفارغ وترميه عليّ، تلفه علي بقوة وتضغط على كتفي، أما أنا، فأسناني تصطك، انتفض وأتقلب من البرد، وهذا أسوأ ما عانيته هنا حتى الآن. وكذلك الجرح، الذي لا أتمكن الآن من تهدئته، يزداد إيلاما. لقد فقدت السيطرة على نفسي، السيطرة التي كنت أعتز بها، حتى أن أوصالي أفلتت من السيطرة.

لما سمحت لنفسها في أوضاع طبيعية بهذه السلوك الفاحش، الداعر، بهذا الفجور والخلاعة، بهذا الشطط والجهل؛ فهي لم تعد قادرة على الكلام. حتى جهاز النطق أصيب بالرعشة، بالارتجاف، الذي يسري إلى المرضة

كريستينا فتحاول تثبيتها وتهتز معها. يبدو أن هذا المشهد ليس مضحكاً؛ فالطبيب المقيم ـ الـذي يظهر على وجه السرعة برفقة إيفلين ـ يقف متسمراً بملامح جادة ويريد أن يعرف منذ متى طرأت هذه النوبة. كريستينا تعرف بالدقائق العشر الأخيرة، لم يعد لديها أي إحساس بالوقت وهي المرأة المرتجة، ولا تأبه أصلاً بالوقت. فجأة تدفع الممرضة إيفلين بسرعة غير متوقعة منها أسطوانة الأوكسجين إلى الداخل. بمهارة يضع الطبيب الكماكة على فم المرأة المرتجة. يأمرها بالتنفس، يتحكم بأنفاسها، وحقاً تخف الرجفة، يضعف الاهتزاز، تستطيع الممرضة كريستينا أن تفلتها وتضع ميزان الحرارة في فمها. تدعو درجة الحرارة غير المعقولة الطبيب ـ الذي يدعى بالمناسبة دكتور كنابه ـ للقول: «عيد ميلاد سعيد».

أما هي فقد تنازلت الآن عن كل مسؤولية نهائيا، أو أن كل مسؤولية رفعت عنها؟ الأمر سيان. إذا كان رئيس الأطباء يظن أنه يستطيع لقاءها مرة أخرى ولهذا يحضرها بتردد وحذر للإجراءات التالية – بالمناسبة مازال يرتدي الكمامة الخضراء – فإنه مخطئ. هل عليها أن تخضع للتصوير الطبقي المحوسب من جديد؟ يقول الطبيب معتذراً: «إنه ببساطة في حاجة إلى معلومات موثوقة»، ليتأكد مثلاً من تشكل خراج جديد، وفي حال الإيجاب، أين؟ لم كل هذا التوجس؟ لا فرق عندها.

أشعر بالغرور. بسرعة الريح تجول الفكرة التالية في رأسي: «أحدهم ينصب الفخاخ لحياتي». أنسى الخاطرة الومضة، كما أنسى في الأيام الأخيرة كل الخواطر المبالغة. أفكر: النسيان عدو الحماس. أحدهم يبتسم فيّ ابتسامة شامتة. لم يكون بوسعي قط أن أعرض هذه الأفكار على رئيس الأطباء فنحن لسنا في إحدى روايات الجريمة. لن أجور حتى عليك أنت بهذه الجملة، يا عزيزي، أنت خاصة. كل ما أحملك إياه هي جمل عن ظهور الشمس من خلال الغيوم وزخات المطر؛ فإني أرى الكائنات الجميلة التي ترسمها الغيوم من سريري، وكذلك كيف ترسل المطر مدراراً على البلاد. أنت تمر في طريقك بالبحيرات، وتعبر جسراً يفصل نصف البحيرة عن نصفها الآخر، وأنا أصدقك تمام الصدق حين تقول إنك عاينت منظراً عجيباً: مطر غزير على نصف البحيرة ونصفها الآخر يتلألأ تحت أشعة الشمس. تقول: الألوان. نعم؛ لي أن أتصورها إذا شئت، أو إذا استطعت.

بالمناسبة لقد بدأ الصليل من جديد، تتلاحق مشاهد الصراع وإزهاق الأرواح على مسرحي الداخلي. أقول لنفسي إني كنت منكرة للجميل، ولم أستمتع كفاية بتوقف الصليل في رأسي، مع أني لا أستطيع تخيل توقف في حالة انعدام الوقت التي أتخبط فيها. لكن في المرة القادمة. هذا إن توقف الصليل مرة أخرى، وإن كان هناك مرة قادمة - سأستسلم للسكون

بعرفان جميل. من الواضح أني لن أبوح لرئيس الأطباء بهذه الظواهر أيضاً. إذا كان هناك أمر واضح فهو العجز عن البوح بهذه الأفكار على الإطلاق. أتمنى أن تلاحظي هذا أخيراً، أقول لنفسي أتمنى أن تعتبري بهذا الحكم الذي لا يقبل الطعن، أتمنى ألا تنسي ما هو اسم العاقبة الأخيرة. بالأحرى ما معناها. فلا يمكن أن «توصف» لأنها تقوم أساساً على التنصل من الوصف، من الأسماء والكلمات: كلها خطأ بخطأ. أقول لنفسي من خلل دوي الحديد ونواح الضحايا: حال طرأ في بالي استخدام الكلمات مرة أخرى؛ فإن علي - في إدماني على الكلمات - الإقرار والاعتراف بأنها خطأ بخطأ.

قال رئيس الأطباء الذي ظهر من جديد في ثياب بيضاء هذه المرة: «إنه سيحضر العملية القادمة شخصياً». إن كان يظن أنه يقدم لي السلوان بهذا فإنه محق. أكد لي أني لن اضطر لشرب أي سوائل، وأن حقنة التظليل أيضاً ليست ضرورية هذه المرة. وأنا أومئ وأومئ. ما له يعتذر عما يحدث في تجويف بطني من أحداث لم يتمكنوا من السيطرة عليها حتى الآن. قد أخبره في حال الضرورة القصوى بالأساليب الماكرة التي يتبعها جسمي لشل حركتي، إني أخفي الالتزامات التي يريد حلي منها، أخفي ولا أعرف الخاتمة بعد. أجيز لنفسي فكرة ترفع عني الأعباء، في النهاية كان كل ما جرى مبالغاً فيه. خاطرة الإفلات من فخاخ الوقت تريحني رغم كل

المعاناة؛ فإني لا أرى احتمالاً آخر للتهرب من ديون الآخرين. يبدو أن الوقت يضغط على كاهل الآخرين. يبدو أن الممرضة مارغوت واقعة تحت ضغط الوقت. سريعاً، سريعاً تبدل قميصي الذي ابتل كلياً من جديد، تقول: غير معقول، هكذا ستيبسين. سريعاً، سريعاً لكن بمهارة وإتقان، تدفع سريري في العنابر وأبواب المصاعد، فقد ألفت الطريق. لا تدع لقلبها مجالاً للخوف من الغيلان الآلية التي تومض إشارات برتقالية وتبعث أشباحها في العالم السفلي. تنهرها بصوت واثق: «احترموا أنفسكم»، فتتوقف الغيلان عن الوميض.

كما أنها لم تنس بطاقة المرض، فهي معلقة على سريري ناحية القدمين. الممرضة مارغوت نشيطة فعلاً، تساعد الآخرين لوضعي على الطاولة التي سيدفعونني عليها فوراً إلى أنبوب جهاز التصوير الطبقين وذراعاي مرفوعتان عاليا فوق رأسي. رئيس الأطباء حاضر، لقد حفظ وعده، يشرح لي مرة أخرى ما الذي سيفعلونه بي الآن، إلى جانبه طبيب آخر، بشعر أشيب محلوق بعناية، يرتدي مئزراً من الرصاص، يعرفني عليه، يمد إلي يده كأننا في حفلة؛ إذن فهو رئيس أطباء أيضاً، وتحديداً رئيس الأطباء في جناح الأشعة وسيبقى برفقتي.

يا للبشرى السعيدة. لن أنبس الآن بكلمة. بوداعة وهدوء

سأنفذ الأوامر التي تتنزل علي من الناحية الأخرى للوح الزجاجي. يبدو أن الصوت النسائي ذاته سيوجه لي أوامر التنفس والتوقف عن التنفس. لا بد أن النشاط الإشعاعي في هذا الأنبوب أخف بكثير من أجهزة الأشعة السينية المعتادة وإلا لما بقي الطبيب في الغرفة، مهما كانت كمية الرصاص التي يرتديها. بل إنه يتناول يدي اللتين تبحثان عن ممسك في النهاية الأخرى للأنبوب، يمسكهما قليلاً، ثم يأتي بوسادة جلدية لأريحهما عليها. أحسن؟ أحسن بكثير. الآن لا تنخلع مفاصل الكتفين، الآن يمكنني التنفس أو التوقف عن التنفس بمطلق السعادة.

أصدقه حين يقول إني جيدة هذه المرة؛ من شب على شيء شاب عليه. في الماضي - أقصد عندما كانت شابة، فلا بد أنها كانت شابة ذات يوم - تعرّض جسدها للأشعة في فترات قصيرة ما لبثت أن تباعدت. أرى المبنى الذي كانت عمليات المراقبة تجري فيه؛ إنه مبنى متصدع، خال من السكان، متشقق من الخارج والداخل، درجاته حجرية، جدرانه مصبوغة بدهان زيتي قذر، أرضيته رثة. نافذة منزلقة في حائط خشبي يفصل غرفة الانتظار، يتم خلفها البحث عن بطاقتي عند إعلان اسمي. غرف واسعة دائماً، مقسمة بالكرتون إلى حجرات، حجرات للانتظار، حجرات لخلع الملابس. أشياء من أيام نوح كان عليها أن تضغط

بصدرها على ألواحها الباردة، خذي نفساً، توقفي، تابعي التنفس. دائماً كانت تشعر بقليل من الخوف، بقايا خوف، كما يقال اليوم، وراحة ضمير لا مسوغ لها، إذا خرجت إلى الشارع خالية من الأمراض.

ألم يكن لقاؤها مع ريناتا بعد إحدى تلك الفحوصات؟ كانت مشوشة، أتذكر الآن، سألتني بحكم العادة عن أوضاعي، من دون أن تبدي اهتماماً حقيقياً. ذهبنا معاً باتجاه الجامعة، في شارع طويل قبيح مكسر البلاط ومحطم الرصيف. رحت أسألها بحذر حتى بدأت الكلام مترددة، وكأن عليها أن تعتذر لي. قالت إنها الآن مع أوربان «في علاقة حقيقية». اضطررت للابتسام؛ فقد كان الموضوع حديث الساعة في مجموعتنا منذ زمن بعيد. سألتها لماذا لا تبدو السعادة على وجهها عندما تعلن هذا. غير سعيدة؟ سألت مذعورة ولم تعد بعد سؤالها غير سعيدة فحسب؛ بل تولد فيها شعور بالذنب. كانت إنسانة بسيطة جداً، لكنها رغم ذلك جذابة، غير أنها لم تكن تجد في نفسها أي جاذبية، ولم تصدق أن أوربان - أوربان تحديداً - هو الذي يخلب ألباب كل الفتيات تقريباً، التصق بها، بأسلوبه العجيب، أي بأن يبالغ في انتقادها أكثر من الآخرين، بحيث كادت تذوب من الاضطراب، هي المضطربة بجميع الأحوال.

وعندما هربت من الاجتماع مرة وهي تكاد تبكي وواجهته بشأنها اكتفى بالسؤال وهو يمد رأسه نحو الأمام بلطف بالغ: «لماذا؟» هل يظلم ريناتا؟ هل يمكن فصل الحياة الخاصة عن الحياة السياسية؟ برأيي لم يكن هذا ممكناً. نسيت الكلمات في سخطي. فقد أعلمني أوربان أن ريناتا كشفت له في حديث خاص أن قلبها مازال يحن إلى وطنها الأم شليزيا، مع أنها تعترف تماماً بخط أودر- نايسه حدوداً بين ألمانيا وبولونيا، وهذا بديهي.. قال أوربان: «مازالت مشاعرها تدفعها على هذا الخط»، هذا ليس عاراً، ولهذا فلا ضير إذا وجهها أحد إلى ضرورة العمل على النفس. ريناتا لم تحرك ساكناً وعندما سألناها إن كانت موافقة على هذا التقدير أومأت وهي شاحبة جداً، كانت أول من غادر. قلت لأوربان مازلت أذكر: «أظن أن عليك الآن أن تهتم بريناتا». قال منتشياً: «واضح، كلمة شرف».

رجاء، أنتباه، لقد خرجنا عن الوزن! إنها بذاتها تلاحظ هذا. لقد أخطأت في أنفاسها. يقول الطبيب ذو المئزر الرصاصي وهو يلمس يدها من جديد: «ليست مشكلة، بجميع الأحوال سنستريح بعد عدة دقائق؛ لقد قطعنا شوطاً بعيداً. استراحة؟ هذا مستحيل. تخطئ التنفس مرة أخرى، وأخرى. صوت الشابة من خلف الزجاج بدى يعبر عن فقدان الصبر، تقول: من جديد، والآن تأخذ الأمور مجراها. تأخذه

بعد الاستراحة أيضاً. أخرجوها قليلاً من الأنبوب، سمحوا لها بتحريك ذراعيها، قالوا لها كم سيدوم التصوير تقريباً؛ صعب عليها أن تبقى على هذه الحالة مدة أخرى مماثلة. الإنسان يتحمل أكثر مما يظن؛ هكذا قالت جدتي وتحملت أكثر مما أقدر على طاقته.

بالمناسبة عليّ. هذا إن أردت الكلام عن أوربان في شبابه - أن أتنبه بالغ الانتباه لئلا ألفحه بسعير اللعنات الرخيصة: آه، يا حقير. أخيراً أمسكنا بك! لم نمسك به أبداً. لهذه الجُملة الآن معنى ذو حدين وخيم، لم نعرفه أبداً في جميع أوجهه. كانت له طاقة عجيبة على التهرب من حكمنا. إلا أنه وضع ريناتا بين فكي الكماشة، ولم يتركها بعدها مطلقا. لم تكن تعرف وقتها ما الذي تريده؛ هذا إن كانت أصلاً تريد شيئاً ما منه أو معه، وفوجئت بغتة بالموافقة على الزواج. قالت لي: لا أعرف بنفسي كيف. كنا على شارع برويل، بدؤوا في شباك الجمعية التعاونية بتوزيع أول معاطف الفرو. كنا واقفتين أمام واجهات المحلات ونحملق فيما داخلها، أسعار باهظة وكأنهم وضعوا القمر في الواجهات وليس معاطف فرو. قلت حائرة: «لكنك تحبينه». قالت ريناتا: «فعلاً لا أعرف». بدت ضائعة تماماً. ما قد يسوغ لأوربان فعله هو أنه اختار هذه الفتاة البسيطة، العاطفية والوفية، التي لا تستطيع إيذاء إنسان.

أجل؛ يقول الطبيب ذو المئزر الرصاصي. والآن وبما أنه يقف قريباً من رأسها تكتشف أنه لم يعد في مطلع الشباب، شعره القصير ناصع البياض، المحلوق على شكل قبعة ضيقة تجعله يبدو أكثر شباباً، وهو مسمرّ في أشعة الشمس، إذن فنحن في الصيف. تتخيله في زورق شراعي على إحدى البحيرات، ثنيتان عميقتان لا يمكن إخفاؤهما، تنحدران من منخريه نحو زوايا الفم، يقول: «أجل؛ اليوم انتهينا». يساعدها على الوصول إلى سريرها، يودعها من جديد، بل ينحني لها؛ إذن فقد انتهت الحفلة. يعقب: «وضعك الآن ليس جيداً حقاً؛ لكنه لن يبقى هكذا. هناك وسيلة علاج وسنعثر عليها من دون شك».

ليست هذه هي الجمل التي تود سماعها وتستطيع تحملها، لماذا لا يعرف هذا؟. ما معنى «ليس جيداً»، ما معنى «لن يبقى هكذا». تقول الممرضة مارغوت: «إنهم يثرثرون كثيراً إذا كان يومهم طويلاً». لكن ليست هي من تعاني السخط في منطقة المعدة، هذا السخط الذي يذوي ببطء شديد. كما أن المذياع الصغير لا يساهم في الحل؛ لم يحن موعد الموسيقا القديمة بعد. عند العصر عندما ترتفع حمى المرضى يذيعون على كل القنوات ما يسمونها «معلومات»، تخشاها كالطاعون وتطفئ المذياع بعد سماعك أولى أنصاف الجمل، التي تكون فظيعة كفاية. إذن فلن تعلم فوراً أين غرقت العبارة، ولا عدد

ضحايا كارثة الفيضان، كما يسومونها عذاب تصور فيينا حيث يتفاوضون حول الأسلحة الذرية، لكنها لا تطيق؛ فكل المدن التي تجري فيها مفاوضات حول مواضيع جنونية أو تعقد فيها «قمم»، تغدو في عينيها أمكنة مجردة على هذه الأرض، لا تستطيع العربات التي يجرها الحصان التجوال فيها؛ على الأقل ليس في وقت انعقاد القمم وإجراء المفاوضات ذاته، كما لا تريد أن تعرف درجة حرارة الحمى.

لا تسأل ولا تحتج عندما تأتي الممرضة مارغوت بالحقنة «التي تصرع الثور»، وتعرفان كلتيهما أنها لا تطيقها؛ فلن تضعف أكثر، ولا بد أن يكون لهذه القطرات الأزلية من «المغذي» إلى أوردتها مفعول ما، وربما يكون المفعول قد ظهر، ألم يعدها رئيس الأطباء بأن «يبنيها»، أليس من الممكن أن يكون البناء في خلاياها على أتم الهمة والنشاط، لكنها لا تلاحظه؟

«إلى البناء، إلى البناء»، هل تعرفين النشيد؟ أسأل المرأة السمراء التي تجلس على حافة سريري من دون أن أعرف في أي من العوالم الواقعية المتعددة التي أحيا فيها، على مسرحي الداخلي أم في العالم الخارجي، وتحاول مثل جميع الأطباء إخفاء وجهها المشفق، هذا الفن الذي لا تتقنه مثل رئيس الأطباء أو معاون رئيس الأطباء الطويل الشاحب،

الأكثر سماكة والأكثر حيادية من بين جميع أطبائي. تقول كورا: «كلا»، لا تعرف نشيد البناء ولا تريد أن تعرفه. تلمس جبيني، تجس نبضي وتقول: «إذن سنعملها من جديد». لكني لا أعرف بعد أنها ستجعلني أنام في الصباح من جديد.

تخاف قليلاً، وتضطر لأن تصرح لي، ولا تنسى أن ترجوني ألا أجعل رئيس الأطباء يلاحظ أني أعلم؛ فهو صاحب الحق الأول والأخير في إعلامي. يبدو أن أحدهم استوقفه. أسألها هل يجب أن تتوافر مظاهر الهرمية رئيس، معاون رئيس، فوق وتحت بين الأطباء؛ هل يجوز أن تتوافر هذه الهرمية؟ تبتسم وعلامات الحيرة ترتسم على وجهها؛ إلا أني لا أمل السؤال وأطرح عليها المسألة التي تشغلني: «أليس كل ما أخوض فيه الآن عقاباً». تصيح غاضبة: «عقاباً؟؟!!، عقاباً على ماذا؟؟»، تصرخ كورا: «أين تأخذك أفكارك؟». يدخل صدى صراخها في مسرحي الداخلي؛ حقاً أين تأخذني أفكاري؟.

وأين تأخذ رئيس الأطباء أفكاره حين يجهد نفسه في اختيار كلمات رحيمة رفيقة كي يخبرها أنه مضطر ليجري لها عملية جراحية أخرى؛ إذ إن التصوير الطبقي المحوسب توصل إلى نتيجة بينة، إلا أنه يعرف الآن أين يكمن الخراج بالضبط، كما أنه يعرف في أي ناحية سيجري العملية، سيلصق صورة الحاسوب أمام عينيه في أثناء العملية،

ويتصرف على أساسها، وهذا وضع قريب إلى الترف. يذكر مثل هذه الكلمات، وهي تقول: «نعم، نعم، نعم ألف مرة». يقول: «إنه آسف»؛ لكنه يضع قناع الجدية ويتجاوز حياده هذا بأن يضع يده على يدها ويشدها قبل أن يغادر، ما يدفع الدموع في عينيها. أو كما تقول الممرضة مارغوت: «ستبدأ الطبخة من جديد».

أخيراً أتذكر كلمة مناسبة للظروف، أفكر بالتسمم؛ أنا متسممة. كل ما أحتاجه هو عملية لطرح السموم، مصفاة، مطهراً. يا للاكتشاف. أما سر تأخر هذا الاكتشاف فيبقى مغلقاً. وكم هو مرهق. مرهق أكثر من التسمم ذاته. قد تكون العدوى أصابتها باكراً. ربما تكون فترة الحضانة التي امتدت عقوداً قد انتهت الآن، وربما يكون العلاج قد بدأ مثل مرض خبيث. لم يبق إلا اشتقاق اسم له. ما يعرف يدرء. أين سمعت هذا؟.

ليلة ما بعد الحقنة موحشة، يشتد الغثيان، يعرج عليها أحدهم كل عدة دقائق، تنام في وقت ما. يعلن لها في الليل الحالك بلهجة حسم: ستنكسر كل قيود العقل. هناك شخصية تنطق بهذه الجملة. تعرف البقية الباقية سلفاً: ألفيرا، قرقعة سلة المهملات، ضغط يدها الخامل، عملية الغسيل التي تتجاوز المعقول، الممرضة كريستينا وبكرة

الشاش وحقنة المهدئ. تقول: كيف! سنسدي لهم هذا المعروف مرة أخرى، لكننا لن نشارك بعدها في هذه المسخرة. هذا ما كان ينقصنا. تبدو كالملاك في شعرها الأشقر الأجعد يحيط بوجهها الوسيم. كريستينا تدفع المريضة بنفسها إلى جناح العمليات. في الغرفة الأمامية تنتظر هذه المرة ممرضة أخرى، ناديجدا تحاول بدورها الكلام معها؛ لكنها تكابد الحرج لأنها لا تتحدث الألمانية بطلاقة، تقول إنها من لينينغراد، تزوجت ألمانياً، مهندساً. تحول ظهرها إليها وتتناول حقناً. تقول المريضة: ناديجدا معناه الأمل. تسر الممرضة بأنها تعرف معنى اسمها.

يأتي رئيس الأطباء ليبلغها أنه سيفتح البطن هذه المرة من الجانب للوصول إلى الخراج، وهو ما معناه أنه سيفتح شقاً آخر. من جديد تضطر كورا باخمان للضحك تحت الكمامة عندما تقول لها بلثغة خفيفة، ولسان ثقيل: يبدو أن الرجل ذو ضمير حي. يقف الأطباء الثلاثة إلى جانب طاولة العمليات مرفوعي الأيدي وصامتين. تقول ساخرة: لجنة الاستقبالات. لا تتمكن اليوم من إضحاك أحد. يقول معاون رئيس الأطباء: نستطيع الآن أن نبدأ.

إنه ليس غوصاً في الظلام. الغيبوبة لا تستقبلني بالتدريج. ليس هناك تمهيد. إما الحضور أو الغياب. أسأل كورا: ما

الذي يحدث؟، ما الذي يحدث هنا عندما أكون في غيبوبة؟. تقول: لا نعرف. حقاً لا نعرف. إننا نفصل العقل عن الجسم، نمنع العقل من التقاط الإحساسات التي تبلّغ إليه. ولا نعرف المزيد. أسأل: والمخاطر الجانبية؟. كورا تصمت. يقول معاون رئيس الأطباء: طبعاً تبقى بعض المخاطر الجانبية، ويعقب رئيس الأطباء متذمراً: في أدنى الحدود. يبدو أنه يعرف تماماً ما الذي أود سماعه. أسأل: هل الموت أيضاً هكذا؟ هنا يضطر حتى رئيس الأطباء للقول: لا نعرف. أسأل كورا: عن أي مستوى عقلي يقطعون الاتصال؛ عن عقل الثدييات العالي طبعاً، لا يقطعونه عن عقل الزواحف، كي يبقى لهذا العقل مجال نقل الإثارة التي يستقبلها إلى المناطق المعنية في جسمي من دون عوائق وأنا – أنا على سبيل المثال أقول لكورا التي تداوم من جديد في المناوبة الليلية وليست مشغولة دائماً على ما يبدو – إذن أنا أصير حيواناً زاحفاً، ولكن من دون أن أنقل أدنى هذه المشاعر إلى حياتي الواعية؛ لكن من يعرف هذا تمام المعرفة؟ هل ينبع هذا من ازدياد إحساسي بأني ديناصور؟

كورا تبتسم من جديد، ولكن من دون تفكر، لم تشعل مصباحاً. وحده المصباح الليلي المربع في عارضة الباب يمنح نوراً واهناً. ستارة النافذة مسدلة إلى النصف، تمر ظلال الغيوم بقمر يكاد يكون دائرياً.

«فلتستعيدوا الإحساس بالدغل والشّعب». أسأل كورا: تعرفين هذا البيت. تقول: في المدرسة لم أتعلم القصائد؛ كانت مدرّستنا ثقيلة الظل. ألاحظ أني لم أتصور كورا من دون قصائد. علي أن أغير طريقة تفكيري فيها. من جديد دست يدها طوال الوقت في مواضع من جسمي بعثت فيها الراحة، جففت وجهي بمنديل فاتر رطب، لفت غطاء ودفعته تحت كاحلي اللذين يؤلمانني، إنهما يؤلمانني منذ أيام؛ لكني كنت أظن الأمر طبيعياً. لدى كورا الوقت لتجلس معي بهدوء وتضع يدها على عضدي. أتصور أنها تبتسم من جديد وأقول مثقلة الجفنين: تعملينني وكأنك أمي مع أنك مثل ابنتي وترد هي: لماذا «مثل»؟ ثم يرن جهازها الصغير وترد بصوت منخفض معلنة أنها ستأتي على الفور. تقول لي إن عليها الذهاب، وتعدني أن ليلتي ستكون هادئة.

كورا ربة الليل والقمر، الساهرة على نومي، عليها أن تتعلم قصيدة القمر. «أرجوك حرر نفسي أنا أيضاً أخيراً». حل، فك، أذاب؛ الكلمات ذات القوى السحرية، تحملني وتأخذني على جناحيها، إلى الأعماق. إلى العنبر. وهكذا يدخل النور في ليل المنجم. جسمي منجم. المصباح على رأس عامل المنجم، الذي يضيء أمامه، يبعث نوراً خافتاً، وتغدو كل خلية من جسمي كهفاً، وكل وريد وادياً ويصير الدم سيلاً، يتبع شبكة سيول متشعبة جداً وهو ينبض، يتغلغل النور أعمق

فأعمق، يتحسس الأوصال، التشكيلات الجبلية الشاذة، السهول الشبيهة بالسبخات، شبكات الأنابيب، ليست مجازاً إلا عن ذواتها. متعة الحقيقي بعد كل هذه الأعوام المثقلة بالمجاز، الممزقة بين رسالة ونقيضها. أنساق مع التيار، لكن هذا أنا، من ينساق مع التيار. نور الوعي الذي يومض في الداخل والأسفل طالما لا يزعج السطح. إنه يهربني عبر الحواجز، الفخاخ، العوائق. حركات خفيفة، سباحة وانزلاق في نطاق ما ظل من الجسم، أحداث طيفية، تدرك، تتوارى عن الوصف؛ إلا أنها توحي لي بالرؤية المحزنة، بوجود حيز، وإلا ماذا أسميه، تختفي فيه الحدود بين الجسدي والروحي، يؤثر فيه أحدهما على الآخر، ينبثق فيه أحدهما من الآخر. أحدهما هو الآخر. إذن هما واحد. إذن فهو المنبع ومن الجدير معرفته؟.

نحن - وأنا بهذا لست وحيدة وسط موقع النزاع، ساحة الوغى - في أتون المعركة. يولد المشهد صدمة. إذا كان الأمر كذلك فمن سيوقف هذه الجماهير الشريرة. عباب من الخلايا المدمرة تهجم على النسيج السليم؛ لكن هذا لا يجوز. هكذا لا يجوز. يجب فعل شيء ما. أنا – تلك الأنا التي تبعتني إلى هنا – تقرر التدخل وتستجمع قواي. آنس أنها رهن طوعي وتستعجل لتتخذ مواقعها. أنا القائد العام. أفكر، قدر ما استطعت التفكير: أبيدوهم عن بكرة أبيهم.

وقواي تطيعني. أمام ناظري تتدافع المضادات الحيوية إلى الحرب بحماسة عالية وتبيد جيشاً عرمرماً من الشنيعين؛ بل تلاحقهم في انسحابهم. عظيم. تابعوا الحرب، لكنها مجهدة. لا نستطيع فعل المزيد اليوم. أقطع الحبل. تتعمق حالة الوعي، فينسى هذا مشاهد الأعماق.

يقول الطبيب المناوب: نعم، ألم الجرح، أصدقك. إذا كنت تريدين يمكننا إعطاءك حقنة أخرى، إنها من حقك. لا تريدها. لا تريد أن تقطع الاتصال بين مستويات عقلها الثلاثة من جديد. مازال للمخدر أثر. كما تشائين، يقول الطبيب المناوب ويزيح الستارة بناء على رجائها. القمر يطل في السماء الصافية في وسط النافذة. «ذات يوم كان لي شيء ما كان بهيجاً». لضحكت لو أنها تقدر على الضحك من أن آخر عبّر قبل مئتي عام عن مشاعرها. وبعد؟ سألتك مرة، ماذا نفعل إذا مضت البهجة من دون عودة وانتهت إلى الأبد؟ لا تحب هكذا أسئلة. ما معنى إلى الأبد؟ من أين لي أن أعرف. وبالمناسبة لا يحق لأحدنا أن يتوقف ببساطة في منتصف الطريق، لمجرد أن الحياة لم تعد بهيجة. لم لا، فكرت، ولم أقلها. «لن أسلوه أبداً، حتى في عذابي». الآن يمكنني - وأنا شاكرة لهذا - التمسك بكلمة «عذاب»؛ وليس علي أن ألفظها بنفسي.

كان أوربان يعيرنا أحياناً بأننا رومانسيون ميئوس منا، وأننا لا نتخلص من مثالية الكتّاب، بدل أن نسعى لنكون موضوعيين. كنا نتورط معه في نقاشات لا نهائية، أما زلت تذكر؟، أنت وحدك كنت تحتفظ برباطة جأشك وتكتفي باللامبالاة. مداهن؟ وهذا رائد من رواد اللاعقلانية؟ ألا تلاحظون أن أوربان ببساطة لا يفهم شيئاً في الأدب؟ هذا كل الموضوع. لكن لم يكن هذا «كل الموضوع». على كل حال ليس كل ما يقال عن صديقنا أوربان. والحال أنه كان يفهم كثيراً في الأدب. أما زلت تذكر ما قالته له أستاذتنا الموقرة منا جميعاً؟ أحياناً عزيزي أوربان يتصور المرء أنك تعشق الأدب. أما زلت تتذكر كيف ارتبك؟

الأرق؛ علي أن أحاول ألا أفكر في أفكار بعينها آناء الليل. قبل حلول الشفق تأتيني ذكرى غريبة: أفلحت قبل بلوغ العمر الذي تخبو فيه الحقيقة، كما أتصور، من معايشة إحدى الحقائق. حقيقة يصعب الإيمان بها في الواقع. يجب ألا أؤمن بها. الإيمان بها خطر مميت؛ لكن هذه هي الحقيقة في الواقع، أفكر في السويعة الخالية من الحمى، التي توهب لي بين الثالثة والرابعة فجراً. الحقيقة تأتي بأكثف حالاتها عندما لا نستطيع الإيمان بها إطلاقاً. ثم تأتي ساعة النوم في الصباح الباكر، ثم يأتي الحلم: أمي متجمدة في حضن أمها على كتلة جليدية. أبي، المنحني فوقها، يحاول يائساً جرها.

أنا طفلة على ظهر أبي.

تشعر بالبرد حين تفيق.

ألفيرا واقفة أمامها، تناولها يدها، تتفحص في التفافتها كامل الغرفة، ثم تقرقع بسلة المهملات. تحكي لها اليوم عن أنواع السجق التي يتناولونها في البيت على مائدة العشاء، وعن خطيبها الذي يحب السجق النيئة قوية البهار؛ أما هي فتحب سجق الكبد، وبهذا يتبادلان شرائحهما. على وجهها هالة من الفرح والسعادة، ينعكس منها بصيص على وجهي. أتذكر شرائح سجق الكبد التي كنت أدهنها وأنا في الخامسة عشرة في نهاية الحرب في ساحة الرياضة لمدرسة هرمان غورينغ، على رقائق خبز النازحين من بروسيا الشرقية، الذين لجؤوا إلى مدينتنا لأنها لم تخل بعد من السكان. هل يتصارع فّي البحث عن الأمان والشعور بفقدانه بالقوة ذاتها؟

تأتي الأشباح الأخرى التي تعبث بها، تعاين مصارف الافرازات، تغير وعاء المغذي، تغسلها، ترقدها. أيضحى بجسمي على مذبح الرقاد؟ ليس هذا ما تمنيته لنفسي قط؛ لكن هل بوسعي أن أتمنى انتهاءه فوراً؟ لا أستطيع. من هذا يستنتج أن الأماني تستهلك طاقة أكثر من الأقوال، طاقة لا أملكها.

يتزايد عدد التشخيصات التي لا أجرأ على قولها لرئيس الأطباء، أرجو أنه لا يخفي علي أقل مما أخفي عليه أنا، فهو يفاجئني ويسألني وهو يدقق النظر في كمن يتوقع مني جواباً: لماذا كل هذا الضعف في جهازك المناعي؟

رئيس أطبائي يقذف بوجهي هذا السؤال؛ ألا يعلم أن هذه صخرة صماء علي أن ألوكها؟ أيظن أني متماسكة؟ أليس بيديه وسيلة أخرى لبث الرعب في نفسي غير هذه الأسئلة؟

متعجلاً يطلب من الممرضة كريستينا - وهو لابس رداءه وواضع غطاء الرأس الأخضرين - أن تطلعه على درجة حرارتي، أحدس في داخلي - لكني لا أقرأ في وجهه شيئاً، فهو يعرف كيف يسيطر على نفسه – أن مستوى الحرارة لا يعجبه كثيراً. لن يرفع حاجباً كما سيفعل الطبيب المقيم، دكتور كنابه لاحقاً. يكتفي رئيس الأطباء بالقول: «نظراً للعملية التي أجريناها فالحرارة مقبولة».

أما الدكتور كنابه فسيقول: «مقبولة حتى هذا الحد»، وينزل حاجبه. لا أحد يذكر قواي الدفاعية بعد؛ ينقطعون للحديث عن عودة الحمى للارتفاع خلال النهار، يبدو أنهم غير راغبين ولا قادرين على قبول الحرارة العالية. إن كانت كل هذه الحرارة رد فعل على العملية الجراحية فإنه رد فعل قوي، وإذن غير صحي، غير طبيعي، إنما علامة على ... لا

يقولون على ماذا. ومعاون رئيس الأطباء الطويل عديم اللون، الذي يبدو أنه يداوم بعد الظهر عندما يذهب الآخرون؛ يزهد أيضاً في الكلام.

بالتأكيد أتيت من جديد، وبالتأكيد تحدثت ـ مثلما تفعل كل ظهيرة ـ مع رئيس الأطباء، وحتى هذا يبدو زاهداً في الكلام. يجب إذن خفض الحمى، وأنا واثقة من هذا؛ لكني لا أريد المزيد من الحقن فأنا أشعر بعدها بالغثيان. أريد كمادات مثل أيام الطفولة. يقول رئيس الأطباء الذي يظهر من جديد مع أنه من المستحيل أن يكون عنده دوام في مثل هذا الوقت: «ولم لا؟؟». فهو أيضاً غرزت فيه هذه الحقنة مرة، هو أيضاً لم يتحملها؛ إنه يتفهم وضعي. إنه ينطق الآن كلمات رؤوفة على غرار «يتفهم». يقول: « ممرضة تيا ساعديني من فضلك».

الممرضة تيا تومئ، إنها وجه جديد علي، عادت اليوم من إجازتها السنوية. إنها قصيرة تكاد لا ترى. يدهش رئيس الأطباء ـ وأدهش أنا أيضاً ـ من أن كل لوازم فحص الجرح في بطني وربطه جاهزة كاملة، وهو ما لم يحدث حتى الآن إلا نادراً. حتى أنك ترى عدة أزواج من القفازات البلاستيكية التي على قياس يديه؛ فأحياناً يتمزق زوج أو زوجان قبل أن يرتديها، لا يحق لهم الاعتراض على نوعيتها.

رئيس الأطباء لا يشتم، إنه لا يشتم أبداً، ولا يمتعض. يرمي القفازات الممزقة في وعاء تحمله الممرضة تيا. تفتح له عبوة جديدة بمهارة ولباقة. الزوج الثالث يبقى سليماً. كشفت الممرضة تيا عن جروحي سلفاً، تعرف كمية السائل المنساب عبر الدرينات، تعرف كيف تصف تركيب السائل، وتتنبأ بما سيطلبه رئيس الأطباء، ملقط، شاش، سائل التعقيم، اللاصق الناعم على الجلد – هل مازال عندنا منه؟ عندنا. سبق أن قصت الممرضة تيا اللاصق بالطول المناسب وتقطفه من حافة الطاولة. بالكاد أشعر بالشريط اللاصق وهي تلف الشاش على الجرح. نزعت قميصي المبتل كلياً وألبستني آخر جديداً. شكراً جزيلاً أيتها الممرضة تيا، يقول ويخرج.

ثم تبدأ أنت والممرضة تيا العمل على الكمادات. ترى هي إن تبخر أولى الكمادات، كما أشعر، طبيعي جداً. تقول: ما على المرء ألا أن يتحلى بالصبر، يغير كثيراً من الكمادات. وأنت تغيرها. الممرضة تيا تلجأ بدورها إلى هذه الوسيلة الطبيعية، الحقنة الأزلية، ما يخفف الوهن. ألا تزداد الاستراحات بين تغيير الكمادات طولاً؟ من المحتمل أن هذا يبدو لي فقط، فإني لا أستطيع الاعتماد على الوقت، أهمل نفسي، أسبح مع التيار، لكني أسمع ما تريد إعلامي به، وأنت تضع المنشفة الباردة حول بطن الساق: اليوم كان المطر غزيراً؛ إذن سيكون صيفنا شتاء. مشكلات موسم الحبوب

لا تنتهي. كل شيء رطب. الشمس لا تطلع إلا نـادراً. تقول المرضة تيا: ثم هذه العواصف الرعدية التي لا تنتهي. توحي بأنها تسكن في قرية قريبة، طبعاً في بيت أهلها، لكنها على الأقل لا تشارك أخاها في الغرفة، لقد التحق بالجيش. تضع يدها على جبيني. تقول: طيب الآن يمكننا. تقيس الحرارة. إذن. يغدو الإنسان قنوعاً. الحرارة ليست على أحسن ما يرام؛ لكنها انخفضت على جميع الأحوال. لا خوف منها.

وتقول كورا التي أرادت أن تطل عليها إطلالة قصيرة: «إن دوامها انتهى اليوم والحمد لله»، تجد حرارتها «مقبولة»، وتجد أيضاً ضرورة متابعة الكمادات. تقول كورا إن زوجها يستطيع الآن الذهاب إلى البيت، فهي ستحل مكانه قليلاً. لا، لا يحق له النوم عند زوجته، مازال عليه أن يصبر قليلاً. كورا والمزاح! هذا لا يلائمها. تقول: إذن ستكون الأمور أفضل؛ أظن أننا أدينا واجبنا اليوم. لا تصدّقها، لم تتعلم قط كيف تجامل. أسأل: ما معنى أن تنام في المستشفى طواعية؟ لا تقدم أعذاراً واهية. هذا سر بيننا. تقول: لا، لا، ليس هذا قصدي؛ لكن محياك لا يبشر بالخير.

بعد أن تذهب أنت وبعد أن تكف كورا والمرضة تيا عن تغيير الكمادات أغري نفسي على سبيل التسلي بفتح المذياع. تصدر منه بعض الأنغام التي أود سماعها، فيفالدي، كما

أفهم، لكن البرنامج يبدأ فوراً ببث الأخبار، ولا أتمكن من الضغط على زر الإطفاء بسرعة كافية، وكيف أمارس هذه الرياضة القاسية وأنا مستلقية في سريري. هكذا أضطر لسماع الأنباء عن العثور على جثة رضيع في قبو بناية في برلين قتله أخوه ابن الثانية عشرة كما دلت التحقيقات.

يا للفزع الذي ينتشر فيّ!! ما الذي أفعله الآن بهذا الرضيع الميت. وحالاً راح يسبح خلف شبكيتي كجنين في أنابيب الاختبار، تدوم الغشاوة برهة حتى أتعرف على الصورة بعد غياب طويل. لقد انطلقت بغير بصيرة كما يلوح لي. أغوص من جديد في شبكة الأوعية الدموية، أسبح، أسير مع التيار، أدخل زوبعة، لا أجد فيها سنداً. تدفعني رغم أنفي إلى ساحة الحرب من جديد. بالكاد أعرفها بعد الغياب الطويل، فقد تغيرت كثيراً نحو الأسوأ. أضطر للاعتراف بأن المرض والصحة ظاهرة واحدة، ولن تفلح كل محاولاتي في تبديل هذه الواقعة. تاريخ من الشكوى في داخلي يعرف معنى هذا. وحالاً أغوص إلى الأعمق. أصير في مكان آخر. الماء أو سائل آخر؛ هل هو دم؟ يصل إلى الركب. في العقد المرورية أختار الاحتمال الذي يقودني إلى الأعمق، نحو الظلام. هذه لم تعد أوعية دموية. أتهاوى في ظلام داكن. صورة الجنين أمام عيني يضيء في الأنابيب الملتوية، أم هو مسخ؟

لقد انتهيت من نزول الدرجات؛ لاشك أن أحدهم أعطاني

مفتاح القبو. هل هي السيدة بالوشك؟ هذا مستبعد، فهي بخيلة فيما يتعلق بمفاتيح القبو، وتلح في السؤال: ماذا ضيعت هناك؟، هل تخفين فحماً؟ ولكن مدفأتنا تعمل على الغاز. فما حاجتك إلى المفاتيح؟ إذن اضطر في سبيل الحصول على المفتاح إلى اللجوء إلى السيدتين، ابنتي العم، اللتين أطلقتا حديثاً على دكانهما الصغير بجوار باب بنايتنا اسم «بوتيك»، وناضلتا طويلاً للحصول على ترخيص بإجراء بعض التغييرات الطفيفة على بضاعتهما من الصابون ومعجون الأسنان وأوراق المرحاض إلى مناديل ديدرون والشماعات والعطور، وذلك بعد نزاعات صعبة المراس مع بلدية الحي، واستأجرتا مخزناً صغيراً في القبو الذي تعطياني مفتاحه برحابة صدر، بل تغلقان دكانهما قبل عشر أو خمس عشرة دقيقة من موعده، لتفشيا لي من دون إزعاج من الزبائن الآخرين بأمر زميل يعمل في مصلحة البريد، يطالبهما مثلي في فترات غير متقاربة - ولكن لأسباب أخرى - بالمفتاح ليصلح - على ذمته - خط هاتف معطلاً في علبة التحويل في القبو.

لكن السيدتين سادنتي العالم السفلي تعرفان كجميع سكان البناية أن خطوط الهاتف غير معطلة؛ أم هل تعطل خطكم؟ والمعنى إذن؟ وأعلنتا هذا بكل صراحة للزميل قليل الكلام، الذي لا يخلو من اللطف، والذي لا يمكن أن يكون - وذلك بسبب بدلته الزرقاء الجديدة والناصعة - مصلح هواتف لدى مصلحة البريد؛ بل تدعيان أنهما سألتاه - فما

الذي ستخسرانه؟ لا شيء – إن كان سيغير أشرطة التسجيل من جديد. «أشرطة التسجيل» كان رد فعل ابنتي العم ذوات الخيال العالي على ذلك الصندوق المعدني الأخضر المختوم في إحدى الغرف الأمامية في القبو، حيث يصل، كما تأكدنا، خط وحيد، هو لسوء الحظ خطنا، ويمتد منها خط وحيد، ليتحد بعد عدة أمتار، كأنما بالمصادفة وبكل براءة مع حزمة كثيفة من الأسلاك القادمة من هواتف البناية، والتي تصب في علبة التحويل الكبيرة، التي يحق لجميع السكان الإطلاع عليها.

لم نصدق أن الصندوق المعدني الصغير يحتوي «أشرطة تسجيل»؛ إلا أننا وجدنا أنه من المفيد أن تعلمنا سيدتا البوتيك – إحداهن شقراء وفاتحة والأخرى داكنة كالغراب، كلتاهما في أواسط العمر، محتفظتان برونقهما – سراً بزيارات مصلح الهواتف، التي جاءتنا بمادة للحديث حتى تساءلنا: هل يطالبون السيدتين بمفاتيح القبو علناً كي تخبرانا بهذا؟؟. فقد سمعنا بمثل هذه التصرفات.

إذن لا شك أني كنت. بما أني هنا في الأسفل أتوغل أكثر فأكثر. في أضغاث الأحلام في عنابر القبو، لدى سيدات البوتيك، ولاشك أني سمعت متحسرة أنهن سيتوقفن قريباً عن بيع زيت الحمام الذي كانتا تمداني به من دكانها حتى الآن، مع أنه بضاعة نادرة. قلت لهما إني لا أكاد أتصور

حمامي اليومي من دون هذا الزيت. وعليه سألت السمراء ابنة عمها الشقراء بسحنة متآمرة: ما رأيك يا مارليز أن نعملها؟ وأنزلت مارليز غطاء عينيها موافقة: جانيت ستعملها. لا شك أن علب زيت الاستحمام إيفيت المستخلصة من زهرة الكاميليا لفت وأخفيت لأجلي في كيس بلاستيكي، كتب عليه بخط ذهبي جميل «بوتيك جانيت»، وحملتها بداية - كما أذكر تماماً - في يدي. ولاشك أني فقدتها أو نسيتها في مكان ما بينما أنا أدخل الغرفة التالية، المظلمة، في القبو، متحسسة الطريق برأس قدمي.

لاشك أن المصباح في هذه الغرفة قد احترق منذ مدة لا يعلمها أحد، فلا أحد - ولا حتى مصلح الهواتف - يخطئ يوماً في الدخول إلى هنا. لم يشعل أحدهم الضوء في هذا المكان منذ زمن بعيد طوال سنوات. لكن أنبوب الاختبار الذي يحوي المسخ يطير - أم كيف أسمي هذا النوع من الحركة: ينزلق؟ - أمامي، يدخل منعطفات لا أعرفها، يستدرجني إلى حجرات فيها مفتاح كهربائي متأرجح ومصباح مغطى بالغبار، قدم خدماته في زمن الحرب أو بعدها بقليل، ويفرز ضوءاً عكراً متأرجحاً. لم تصل أعمال الترميم التي استمرت أشهراً طوالاً في الأجزاء العليا للمجمع السكني إلى السراديب. إذ إنه - كما أخبرني المشرف على عمليات الترميم - لا قياسات ولا مخططات، بل ولا يعلم أحد بالمتاهة المتشعبة تحت الأرض،

المتاهة التي يرتبط بها قبونا ولا شك. يرحم الرب من تاه فيها؛ هكذا قال المشرف على عمليات الترميم، وهو المتردد الريفي الكاره لكل ما هو حاضرة.

يبدو أن كل حجرة تصب في حجرات أخرى لم أدخلها قبلاً. في زاوية قصية خلف باب من عوارض خشبية، يصعب فتحه لأنه يحتك بالأرضية؛ لكني أفتحه ولو برهبة وحذر، لأن علي الوصول إلى ذلك القبو، حيث قتل الرضيع. السراديب متداخلة حسب طراز معماري لا يعقل. أخوض الآن في الغبار، أكوام من القمامة أزلية القدم في الزوايا. أرى جرذاً يهرب أمام قدمي بسرعة مذهلة. ألاحظ أن المكان المضيء الذي يحوي المسخ قد اختفى، لم يعد لدي دليل، لم أعد أستدل على الطريق. كل ما أعرفه هو أن علي البحث عن الرضيع القتيل، على الرغم من شعوري بخوف فظيع يجل عن الوصف لمرآه. ذات يوم سيقبل زمن علينا أن نبحث فيه عن الماضي المنسي. أتوه في متاهة قبور الأطفال الذين لم يولدوا بعد، علي أن أبحث عن معنى قول «لم يولدوا». أسير... أتعثر... أتحسس طريقي.

الآن ليس هناك أي مصباح، الآن أحمل بيدي كشافاً يدوياً واهنا، أحدهم يريد أن أتقدم ولا شك أنه أمّن لأجلي أهم المستلزمات. الآن أتبع أسهماً على الحيطان كانت بيضاء وبليت، تحتها عبارة لن ينساها من قرأها قط (ملجأ

حربي). أستغرب من وقوع الملجأ في متاهة القبو على كل هذا البعد من بنايتنا. لم يلحق ببنايتنا الكثير من الخراب بينما سقطت في إحدى الغارات الجوية الأخيرة قذيفة صاروخية على البناية المجاورة وتهدمت كلياً. أتساءل للمرة الأولى هل صرع جميع سكان البناية المجاورة؟؟، هل نجا بعضهم؟؟ ربما؛ وذلك لأنهم تمكنوا من الوصول إلى النقطة التي أقف فيها وأفك حروف الكتابة الباهتة: فتحة الجدار. انعكاس مرعب. أي جدار. لكن هذا الجدار مفتوح منذ زمن بعيد. أستطيع عبور الثقب متسلقة حصى رخواً، وأدخل حجرة تشبه الحجرة التي أتيت منها؛ بل إنها مثيلتها، والحجرة التالية مثيلة سابقتها ورائي.

أتعرف عليها من بقايا الرفوف الخشبية على الحائط الذي كان يقع يميناً وصار الآن على اليسار. عليها زجاجات التعليب المتسخة والمغطاة بالغبار. أتمكن من قراءة الملصقات التي كتبت عليها ربة بيت ألمانية بخط يد قديم: كرز ١٩٤٠، لحم الأرانب ١٩٤٢. أحاول أن أتصور من أين حصلت هذه السيدة عام ١٩٤٢والحرب في أوجها الحرب على لحم الأرانب؛ ربما كان أهلها يملكون حديقة صغيرة. لكن ما يبث رعباً حقيقياً في نفسي هو الشك، ثم اليقين، أني دخلت بعد عبور فتحة الجدار في أرض هي صورة منعكسة بأدق التفاصيل لتلك الأرض التي كنت أتحرك عليها قبل عبور

الفتحة. ها هي ذي الأسهم ذاتها على الحيطان تدل على الاتجاه المعاكس، ها هي القاذورات في الزوايا. أخيراً مفتاح الكهرباء المتأرجح الذي أعرفه، والجرذ الذي يمر بسرعة خاطفة. ما تفسير كل هذا، هل أنا مرغمة على الانقياد في عنابر المرايا المتجددة إلى الأبد؛ أشعر أني أغذ السير... أتنفس أسرع... أريد الخروج؛ فيظهر لي المسخ في مكانه من جديد، يفرز ضوءاً أزرق. هذا كثير علي.

ها هي ذي المرأة الجذابة، الضاجة بالحياة، تتقدم، تتناول المسخ، الذي نما وصار رضيعاً، من الفراغ، تتلقفه بين ذراعيها. أتعرف عليها، أنادي: «ليزبتا»، لكنها لا تراني، لا تسمعني. لطالما تمنيت الحصول على قبعة الإخفاء. تهرب المرأة مذعورة. أركض وراءها. أريد تهدئتها. إنقاذها. وإذ برجل يتقدم نحوها. الرجل ليس طويلاً، بل رقيق البنية، يحيطها بذراعيه، يمسد على ظهرها، يواسيها، يأخذ منها الطفل، الذي لم يقتل إذن، الطفل الذي سمح له بالبقاء على قيد الحياة. ها هم يسيرون أمامي هم الثلاثة، نصل إلى حجرات القبو ضعيفة الإنارة التي سبق أن مررت فيها، ثم نصل القبو الكبير، المقسم بالعوارض الخشبية إلى فروع لكل المستأجرين. أرى من خلال الشقوق دراجات قديمة الطراز، أكوام الفحم، حطباً مقطعاً ومرتباً، خردوات، رزم جرائد. أقرأ عنوان الجريدة النازية. أتقدم كما يتقدم النائم.

أسير نائمة في حجرات قبو البناية المجاورة، التي دمرتها القنابل قبل ٤٤ عاماً، عام ١٩٤٤، ملاحقةً عائلة الخالة ليزبت، التي ليست عائلة كما أعرف طبعاً؛ بل إنها منذورة للفناء إذا اكتشف أمرها ولن تكون عائلة قط. لن يسمح لها قط أن تكون عائلة. أرتقي معهم درجات القبو، وأفتح لهم بابه من دون أن يروني بالمفتاح الذي أعطتني إياه سيدات البوتيك. وراء الباب - لن يثير في شيء الدهشة بعد — أجد الكيس البلاستيكي الصغير الذي يحوي زيت استحمامي. أتبع ليزبت التي هدأت في هذه الأثناء، وهي تحمل طفلها برقة وحنان، نحو الأعلى إلى الطابق الأول، إلى ذلك الباب الذي كتب عليه اسم زوجها، الإسم الذي صار اسمها واسم ولدها أيضاً، الباب الذي تقف أمامه إذن، تخرج مفتاحها من جيب مئزرها، ومرافقها، والد طفلها الذي عليه أن يفترق عنها هنا، يحضنها، ليس قبل أن ينظر على الدرج من حوله حذراً ويقظاً.

أسخن إذ يخطر لي أنه قد يراني؛ أنا الطفلة في السابعة من العمر. ترتفع حرارتي إذ أسأل ما الذي كانت ستفعله هذه الطفلة إذ علمت أن خالتها أنجبت ابن زنا من يهودي. لا يراني، وهكذا أتبع غير مرئية، مثقلة القلب بالهموم،

الرجل الذي يرتقي حاني الظهر، بطيئاً، طابقين آخرين في البناية التي لم تعد هناك، حتى ذلك الباب الذي ألصقت عليه لوحة كرتونية كتب عليها بخط اليد: طبيب، د. لايتنر، طبيب عام، يومياً بين الخامسة والسابعة مساء (يمنع دخول الآريين). يلوي الدكتور لايتنر شفتيه قليلاً، إنه يعرف - كما بدأت أعرف أنا أيضاً - أن عدد المرضى اليهود قد قل أيضاً، يقل يوماً بعد يوم، فلم يعد منهم إلا القليل في المدينة، ويعرف أنه لن يبقى على قيد الحياة من دون الحساء الذي تأخذ إليه الخالة ليزبت كل يوم، تحمله من دون وجل على درجات طابقين، سيان من صادفها على الطريق. يعرف أنه سيفنى من دون شريحة الخبز من يدها، من دون الحلوى التي تخبزها ليزبت بيدها، ليزبت، حبيبته.

حين أصحو أدرك أن الليل سينجلي بعد قليل، كورا هنا، أقول لها إني لم أعثر على الرضيع القتيل، ربما لم يكن في قبونا. لا ترد علي، تقرأ مع الممرضة كريستينا درجة الحرارة على الميزان. تطردان ألفيرا التي تندفع كعهدها ملحاحة، من الغرفة: «اليوم لا! يجب أن تغسل اليوم، من الواضح أنها مرهقة. اليوم سنغسلها نحن. رائع أنك في المناوبة الصباحية، ممرضة تيا». تقول الممرضة تيا: «أمس كان عندي مناوبة ليلية؛ إذا تداخلت المناوبات لا يبقى الكثير من الوقت للنوم. الحمى عالية جداً هذا الصباح الباكر، لن تأتي الكمادات

الآن بأي فائدة. «ممرضة تيا؛ برأيك لماذا يقتل صبي في الثانية عشرة من العمر أخاه الرضيع؟». تقول الممرضة تيا: «الحسد والغيرة يسودان عالمنا، يجب ألا نخاف من أحد كما نخاف من المقهورين، وإذا كانوا ـ علاوة على هذا القهر ـ غير مؤمنين فليسترنا الله». الممرضة تيا مؤمنة، تغني في جوقة الكنيسة، مازالت غضة على هذا الإيمان القوي، كما أظن؛ لكنها لن تسأل أحداً من الناس الخاضعين لرحمتها عن إيمانهم أو تقسمهم على أساسه. تسمع المريضة نفسها متسائلة: «ما الذي سيحدث معي ممرضة تيا؟» وتسمع الممرضة تيا تقول إنها واثقة من أنها ستستعيد صحتها. لا تسأل رئيس الأطباء عن صحتها، فهو آت ليعلمها بوصول نتيجة تحليل دوافع الحمى، وليقول إنهم سيحاربونها الآن بالوسيلة المناسبة لها. يقول: سنطلق عليها أشد نيراننا. الدكتور كنابه يقف وراءه حاملاً الحقنة.

للمرة الأولى يجد رئيس الأطباء نفسه ملزماً بشكرها على ما أبدته من «حسن التعاون»، ما قدم لهم مساعدة كبيرة. أين نحن؟؛ هل نحن في مؤسسة تعاونية أم ماذا؟ ثم ما الذي بيدها لتفعله سوى التعاون. وفيما بعد تطرح السؤال على الممرضة كريستينا؛ فتقول هذه: كان لها أن تتصرف بطريقة مختلفة تماماً. تفكر بالموضوع لكنها لا تصل إلى نتيجة. يبدو أن هناك هنيهات لا تلاحظ يستحيل فيها المجهود المتواصل

إجهاداً بالغاً، يبدو أن قوة غامضة في داخلها بذلت جهداً مبالغاً فيه. على كل حال يبدأ قلبها فجأة بالتسرع؛ في البداية لا تولي أي اهتمام به، إلا أنها تضطر لقرع جرس النجدة. للأسف، إنها مناوبة إيفلين؛ إذن فقد حل العصر، لا تستطيع إيفلين مناداة أي طبيب لأنهم جميعاً في العمليات، كل ما تستطيعه هو الاندهاش من سرعة قلبها، تقول إنها ستبذل قصارى جهدها. لكن حتى بعد عشرين دقيقة مازال جميع أطباء الجناح يجرون عمليات جراحية، ولا يحق لها إحضار طبيب من جناح آخر من دون موافقة الطبيب المقيم، وهذا في حالة طوارئ، العمليات (٣)، عظيم، المرضة إيفلين تعرف على الأقل هذا. ولا تعرف المزيد حتى بعد مرور أربعين دقيقة، تجس نبض المريضة، تندهش من أنها غرقت من جديد في عرقها وتقول: «لا جدوى من تبديل ثيابها الآن، كما أنه ليس ثمة قمصان نظيفة».

إلا أن المريضة تستشعر الغضب فجأة، تأمر بإحضار طبيب داخلية فوراً وعلى مسؤوليتها الشخصية، من أي جناح كان. مترددة تذهب الممرضة إيفلين إلى الباب؛ لكنها عندما تسمع التعليمات بوضوح، أكثر تخرج على وجه السرعة. خلال خمس دقائق تصل طبيبة الداخلية من الجناح (٦) وبيدها الحقنة. تقول المريضة: «كان هذا حلاً ممكناً منذ زمن بعيد». يدخل إلى الغرفة جهاز تخطيط القلب المحمول،

تربط الأقطاب، تجد الطبيبة الوريد على الفور، تغرز الإبرة وتحقن ببطء وهي تراقب الشاشة، ترى فوراً ـ هذا قبل أن تشعر المريضة ـ أن النبض ينخفض إلى تردده الطبيعي. تقول: «طيب، لكن علينا إخضاع الحالة للمراقبة المستمرة».

إذن سأظل مربوطة إلى جهاز يرسم سرعة تردد النبض في صورة خط بياني متعرج على شاشة، ويصدر طنيناً على فترات زمنية متماثلة. إذن سيصدر المزيد والمزيد من الأسلاك من جسمي إلى العالم الخارجي، أنت لا تبدي شديد الإعجاب عندما تدخل. أقول: «سلام، ما لك؟». تقول فاقداً روح الفكاهة: «آه، لا شيء». يبدو أنك لن ترد على أسئلتي إلا بأسئلة. عندما أسأل: «ماذا قال رئيس الأطباء؟؟»، ترد بكسل: «ماذا سيقول؟؟». تبدأ من جديد مع الكمادات. تقول: «الشيطان ماهر». تومض الفكرة في رأسي: يحتمل أن يكون الشيطان ماهراً جداً. علي أن أتملى في الموضوع. أقول: «لكن أي شيطان هو المعني هنا؟ وماذا لو كان هناك شيطان يريد الخير دائماً، ولا يرتكب إلا الشر؟؟!!».

كل حدث يعيد نفسه، ألاحظ أني أضيع، يرى رئيس الأطباء ـ وقد حل المساء، والمصباح المتأرجح فوق سريري مضاء، يرتدي لباساً أبيض: أي أنه لم يخرج لتوه من غرفة العمليات — أنه لا ضرر من انخفاض الحرارة حتى لو كان

باستخدام الكمادات. يقول دكتور كنابه من خلف ذقنه: «مع أنه لا يمكن عدها نتيجة عملية ناجحة»؛ «ليس فقط» يعقب رئيس الأطباء بإيجاز شديد. ويغادر الدكتور كنابه، من السهل تكديره. يظل رئيس الأطباء واقفاً إلى السرير، يجس نبضي، أشق عليه. يسأل عما أقرأه، أعطيه الكتاب الأزرق الصغير؛ يقول: «قصائد غوته، عسيرة الهضم». يفتح الكتاب على الصفحة التي أشرت عليها، يدمدم:

«لا تألوا جهداً

في قوى الخير

هنا تتأرجح ذرى الأشجار

في سكون أزلي

ستجزي العاملين

بالوفرة والسعة

نرجو لكم الأمل».

يقول رئيس الأطباء: «شيء جميل، (بالوفرة والسعة)، تعبير موفق. على كل حال سنتحمل حتى الصباح، أليس كذلك؟».

يغادر مرتاحاً نوعاً ما. «أنت تناضلين معنا»، يقول وهو واقف على الباب لكنه لا ينتظر الجواب. هل هو مناوب اليوم، أم لماذا حضر في هذا الوقت المتأخر؟؟. هناك أسس لا تنهار، ما يدعو لبعض التشفي الحذر. تريد أن تقول مثل هذه الحكمة لكورا عندما تدخل أخيراً، وتهمس في أذنها أنها تملت قليلاً في كلمة «نضال». تقول كورا: «الأفضل أن تنامي الآن».

- «وأنت أيضاً»، هنا تبتسم كورا. من أراد الحياة عليه أن يناضل إذن، أرجو أنك لم تعاني هذا. تهز كورا رأسها. ومن يتكاسل عن النضال في عالم الصراع الأبدي لا يستحق الحياة. كان هذا الشعار معلقاً على جدران مدرستنا. تقول كورا: «سامحهم الله؛ كان هذا زمناً ولى».

– ليزبت، خالتي ليزبت، أحبت في ذلك الزمن طبيباً يهودياً وأنجبت منه طفلاً.

– العياذ بالله؛ وكنت تعرفين هذا؟

– كنت طفلة. أصرت خالتي على أن يجلس والد طفلها بجانبها في حفل العماد، ثم حان الوقت وطلب كل من الحضور سماع الأغنية التي يفضلها، وطلب الطبيب اليهودي والوالد غير الشرعي للطفل المعمد سماع أغنية «على البئر

أمام الباب»، وغنت له عائلتي هذه الأغنية.

كورا صامتة.

- روى لي دكتور لايتنر هذا الحدث بنفسه؛ لقد جاء من أمريكا لهذا الغرض خاصة.

تقول كورا: «غير معقول». تغرورق عيناها بالدموع، أغرق في البكاء؛ كان علي البكاء منذ زمن بعيد. أبكي وأبكي ولا أتمالك نفسي، أبكي على ليزبت التي تغيرت كلياً بعد أن ترك والد طفلها البلاد إثر «ليلة الكريستال». أبكي على طفلها، ابن العم مانفريد. أبكي على الدكتور لايتنر، وأبكي على عائلتنا، أبكي على نفسي. كورا تجفف دموعي بمناديل السللوز. تهمس لي: «ستتحسن الأوضاع». أهز رأسي: «لا، لا يمكن للأوضاع أن تتحسن». وحين أكتشف هذا أكف عن البكاء. «سيفتح الله عليك»؛ أومئ. «نعم سيفتحها الله علي». أنام.

أنت تناضلين معنا، وإلا! يقول صوت لا أعرفه على الفور. يمر وقت طويل حتى يتسنى لي أن أنسقه في طبقة عميقة من الطبقات الآثارية في داخلي. القطع المتبعثرة تتكاثف في رأسي بشدة. إلى النضال، إلى النضال، ولدنا للنضال. نعم، إنه أوربان. أوربان يعيد نفسه. أوربان الذي وجد ملاذاً في

رأسي منذ أن فضل الهرب إلى الواقع. كيف أفسر اختفاءه. بأنه توقف عن النضال؟ قالت ريناتا: أوربان؟! مستحيل، لن يفعلها في حياته، إنه لا يستسلم أبداً، يفضل أن ينطح الحائط. تتدخل مسألة هامشية: في الجمعية - حيث كان أوربان يتمرن ليستلم منصب سكرتير الثقافة - جاء أمر بضرورة فصل قاعات الطعام، يأكل في إحداها كبار الموظفين وأصحاب القرار الأفاضل، وفي الأخرى العمال العاديون. أمر من فوق كإجراء ضد اختلاط الحابل بالنابل. احتج أوربان، حمل السلم بالعرض. كنا نترقب عاقبة الأمر مختنقي الصدر؛ لم يدخل قط إلى قاعة كبار الكوادر. طلب منه الحضور إلى اجتماع الحزب فألقى خطاباً نارياً. لم يوافق. قال: «أين نعيش؟». صرخ في الاجتماع، وجه إليه تأنيب شديد رغم اعتراضنا نحن الثلاثة. انتقدنا أوربان قائلاً كان علينا الالتزام بالانضباط. وضعه مختلف. بالنسبة له كان الأمر أمر مبدأ؛ اقشعر بدني منه.

يجب أن أبحث عنه، لا شيء أهم الآن من البحث عنه؛ لكن كيف أبحث عنه. علي النهوض، وهو ما أحاوله الآن حتى لو منعوني. علي في البداية أن أحرر ذراعي اليسرى التي قيدوها إلى مكان ما. أجرها وأسحبها. يتولد وخز أليم في مرفقي الأيسر. يتقطر الدم على القميص. لن تفرح الممرضات بهذا. ها هي قد جاءت، ولاسيما إيفلين ذات

الشعر الأسود، «بحق الله!!؛ ماذا تفعلين أنت هنا. ها هي الأخرى تأتي، الممرضة كريستينا، وخلفها رئيس الأطباء ودكتور كنابه. ما الذي يجري؟ أقول: «علي البحث عنه». يسأل رئيس الأطباء: «عمن تبحثين إذا سمحت؟». أقول: «عن أوربان». «طيب طيب»؛ يقول رئيس الأطباء.

يسلمه دكتور كنابه من خلف قناع كثيف بطاقتي وعليها آخر المعلومات. أرى بنصره ينقر على بعض السطور، يقول «هنا، وهنا». أرى ولا يغادرني الشعور بأنه يؤاخذ دكتور كنابه على هذه المعلومات، ويبدو أنه هو بدوره لا يغادره هذا الشعور. يقول رئيس الأطباء: «عليك أن تنتظري قليلاً حتى تتمكني من البحث». أقتنع بكلامه. الآن يريد أن يفحص جروحها، للأسف إنها مناوبة الممرضة إيفلين، ليس هناك إلا قفازات من التي لا تناسب يد رئيس الأطباء أو التي تتمزق حالما يرتديها. تقول المريضة في محاولة منها لتساهم قليلاً في تخفيف حدة التوتر: «قفازات هوائية». إلا أنها لا تبعث جو المرح. ليس هناك ما يعيب الجروح، ليست هي السبب في نوبة الهذيان. تزعم المريضة أن بشرتها قابلة للاندمال السريع، وتحصد على قولها هذا نظرة من طرف الطبيب لا تعريف لها. وبينما تلصق إيفلين الشريط اللاصق المؤلم بخراقة يقول هو وكأنما يحدث نفسه: «أتمنى لو أعرف ما الذي أدى إلى كل هذا الضعف الهائل في جهاز المناعة لديك».

هذه أهم جملة تصل مسمعي منذ أيام بعيدة.

يعقب رئيس الأطباء أن الأدوية التي أتتهم بكميات كبيرة بالمناسبة، تتقدم للزحف الكبير على الجراثيم اللعينة، بدأت بزحفها بكل تأكيد. لكنها طبعاً ليس بوسعها تقديم كل الخدمات؛ إنها تعتمد على جهاز المناعة الذاتية في الجسد.

أقول: «نعم؛ هذا تماماً ما أظنه».

يحدق فيّ رئيس الأطباء متفكراً، ويقرر من ثم متابعة الكلام، يقول بنبرة علمية بحتة شبه عقابية: «إن تطور المرض لا يسوغ انهيار جهاز المناعة لدي تسويغاً كافياً».

إذن فقد تخلى أخيراً عن حياده، وبدأ يتكلم من دون مواربة. حتى الآن لم تذكر كلمة «انهيار» قط. كل خلية في جسمي تعرف معنى هذه الكلمة.

أقول محاولة التغلب على ارتباكي: «ربما»؛ ربما لم تكن الأسباب عضوية فحسب؛ فقد أجد تسويغاً أو آخر عند الضرورة؛ أعني الإرهاق، الإرهاق النفسي.

لا يأبه رئيس الأطباء بتلجلجي، يغدو رسمياً جداً، محايداً جداً؛ لقد تبين ضرورة إجراء فحوصات أخرى، وإن كانت قصيرة جداً بالتصوير الطبقي المحوسب. التصوير سيجرى اليوم، قصير جداً كما قيل. لا ينظر إلي، يتبادل الحديث

مع دكتور كنابه الذي يعلم الموضوع سلفاً، وأنا أحول وجهي بتهذيب بالغ. يبدو أن أحداً لن يسألني رأيي هذه المرة. ما يحدث الآن يحدث بارتباك عملي بالغ ومن دون أن يأبه بي أحد. الممرضة كريستينا تتصنع وجه الممرضة الحازم، تبدل أوعية المغذي، تعدل وضع القثطرة بهمة ونشاط، بخفة وإتقان؛ تقول: «اليوم ستهطل زخات مطرية متفرقة»، وتطرد ألفيرا ـ التي جاءت لتبديل سلة المهملات أخيراً ـ بحركة وحيدة، كما يلوح الممرض الشاب يورغن الذي يشطف الأرضية بسائل معقم، باشاً من شدة ارتباكه، يشكو من أنه لم تحن له إلا في هذا العام فرص قليلة للجلوس أمام شاليه أبيه. وحتى الممرضة تيا ـ التي تصل إلى مناوبة العصر في الموعد المحدد تماماً وتدرك كل المجريات من النظرة الأولى ـ تسدل الستارة لأن الشمس تضرب على النافذة مباشرة، تدفع الكرسي المتحرك تحت ركبتي، تبدل قميص نومي، حتى الممرضة تيا، تمتنع عن تقديم أي إيضاحات.

أنا مشغولة بكلمة «انهيار»؛ أرى صورا من الجحيم، لأي إثم ارتكبته؟ أذم الدين الذي يحيل كل تعاسة تصيبنا إلى إثم ما ارتكبناه، لكن لماذا التعاسة، هل أنا تعيسة؟ تقول كورا، إنها لن تسمي حالي سعيداً بشكل مباشر، لكن مهما كان الوصف فإنها تفضل ألا أتابع الحديث؛ بل تفضل ألا أفكر كثيراً قدر الإمكان، ربما الأفضل أن أنام بكل سهولة،

أقتنع بكلامها؛ لكنني للأسف أشعر ـ بينما هي لا تزال واقفة إلى سريري ـ أن الارتجاج في داخلي يبدأ متمهلاً. أرجو ألا تعاودني الحالة، لا أريد أن تعاودني. أحصن نفسي. أشد عضلاتي. أرص أسناني. غير أن الرجة أقوى مني، تخرق جدران مقاومتي، تزحف، تأسرني، تهزني، تهز السرير، تجعل أسناني تصطك. أفكر: «إنها عمليات عقابية». النواح واصطكاك الأسنان؛ هذا هو المقصود تماماً. ما تلبث كورا أن تضغط زر الجرس، ما تلبث الممرضة تيا أن ترمي علي الغطاء الثاني، تكافح ضد اهتزاز كتفي. يا لتفاهة هذه الإعادة، يا لبؤسها، أسطوانة الأوكسجين مازالت في الغرفة، تضغط كورا الكمامة على فمي وأنفي: «تنفسي، تنفسي، تنفسي بعمق».

هذه نقطة اللاعودة، كتابة بأحرف نارية على الجدار الداكن.

لا!! أرجوكم لا تعيدوا هذا أيضاً، أرجوكم لا تعيدوا علي صليل السلاح؛ لو أني استمتعت بالسكون السابق بحمد وشكران. في المرة القادمة سأعترف بجميل السكون في رأسي وفراغه من الصور. الآن علي أن أتحمل ضجيج الجحيم وملامح المعذبين، الذين يجرجرون أنفسهم عبر التاريخ وينظرون إلي من داخلي. إنهم لا يشكون، إنهم يعانون. أنا

وجهاً لوجه مع المعانين. أتحمل هذا في وقت أعاني فيه أنا أيضاً. يتبين لي المعنى السري للمعاناة؛ أعرف أنني سأنساه عما قريب.

لماذا انهار جهاز المناعة لديها. ربما، أيها البروفسور؛ ربما لأنه أراد أن يعوض عن ذلك الانهيار الذي تحاشته الشخصية. لأنه هو الذكي، كما هي طباع هذه القوى الخفية فينا، طرح الشخصية أرضاً، أصابها بالمرض، ليخلصها بهذه الطريقة المسهبة والمتعبة من براثن الموت، ويضع وزر المسؤولية على عاتق شخصية أخرى، على عاتقك أيها السيد البروفسور. هل كان هذا سبب حيرتك قبل قليل، سبب استيائك المكشوف؟ أترفض الدور الذي أرغمت عليه؟ أتتفجع على نوايا هذه الشخصية الخفية عليها ذاتها، والتي لا يجوز والحق تسميتها نوايا؟ هي بدورها تفضل عدم الحديث عن الانهيار أو التفكير فيه، إنما عن الانحلال، عن الرغبة الجامحة في الاختفاء، الأمنية التي يحققها بدلاً عنها جهاز المناعة المتشح بالأسرار، وهو ليس سوى خيال؛ كما هي كثير من الأشياء التي تؤمن بها، وهو محبوس في كلمة، كي تهدأ، كي تتابع الحياة من دون أن تعبأ بالآثار التي يخلفها جهلنا وبطشنا في أجسامنا. مثلاً في جهاز مناعتنا، الذي قد يجد نفسه مضطراً يوماً من الأيام للانسحاب منا. الذي قد يسأم من دوره بوصفه مخبراً وواشياً وملاحقاً. قد يسأم ببساطة

من مطاردة كل دافع للمرض خبيث، مهما كانت درجة خبثه، ويعير من ثم على عمله هذا بلقب الخلايا القاتلة. الذي كشف عمليات التضليل التي تنفذها هذه الشخصية الداهية، ورقدت بكل دعة عندما بدأ الالتهاب صغيراً في بدايته، ولكان أمكن السيطرة عليه بسهولة لو ألقت له بالاً. والذي لم يجد أي مسوغ لسلوك أذكى، وأكثر تمسكاً بالحياة، وأكثر يقظة، وأعقل من الشخصية ذاتها. «الذات»، يا له من مفهوم متأرجح ومشوه.

أشار لها جسمها في الوقت المناسب؛ لكنها لم ترد تصديق وجود أمر خبيث منذ النوبة الأولى، النوبة الخفاقة للآلام. لم ترد إحضار الطبيب، لم ترد قطع طريق السفر؛ بل قدمت لمعدتها «بالغة الإجهاد» شاي الكاميليا. لكن كيف تفسر أنها لم ترغب في دعوة الطبيب حتى بعد أسابيع، حتى بعد الآلام المضنية، بعد الغثيان القاتل، عندما لم تعد قادرة حتى على بلع رشفة الشاي. أصرت على أنه التهاب في جدار المعدة، ولم تصدق الطبيبة التي أعلنت تشخيصها في عتبة الباب وهاتفت سيارة الإسعاف.

«هل كانت تريد قتل نفسها»؛ هذا السؤال الذي طرحته عليها الطبيبة: «هل تريدين قتل نفسك بالقوة؟»، إنها فكرة بدائية جداً. الجدير بالذكر أنها كانت تتصور منذ طفولتها

أن روحها مثل المصران الأعور، خرطوم جلدي قصير ملتف على نفسه؛ لكنه في القفص الصدري فوق المعدة، حيث يتربع الخوف على تاجه.

لم تدرك قط أن المصران الأعور الذي يأخذ شكل روحها قد يستأصل بعملية جراحية؛ لأنها بهذا ستبدو في عينيها من دون روح. لكن لمن كانت ستقول هذا؟ فالطبيبة التي كانت تظهر عجلة غريبة عليها وقسوة بالغة لم تكن تقبل النقاش، كل ما كانت تريد معرفته هو لماذا لم يسرع أحد في إحضارها، وهزت رأسها عندما زعمت المريضة أنها لم تكن تعرف أن هذه الآلام قد تكون نابعة من المصران الأعور. لكن الآلام انتقلت في سيارة الإسعاف المرتجة إلى الجانب الأيمن للبطن بسرعة غريبة.

تقول لرئيس الأطباء: «في إمكانك التوسط لتزويد سيارات الإسعاف بالنوابض». فيرد عليها: «أجل حان وقت تبديلها، والحق يقال». تقول: «إذا لم يكن المريض متيقظاً، إذا لم يتمسك بكل قواه؛ فقد ينزلق ويرتطم بحجارة الشارع التي تشبه رؤوس القطط». يقول رئيس الأطباء: «أجل والحق يقال؛ معك كل الحق». لا يريد رئيس الأطباء أن تلقبه بعد الآن برئيس الأطباء؛ فهو لا يفضل الجزء الأول «رئيس»، وهي أيضاً لا تفضله. تقول كورا إن أغلب المرضى - أو بالأحرى

أغلب المريضات - يفضلن قول رئيس الأطباء؛ فقيمتهن تزداد عندما يقلن: «لقد أجرى لي رئيس الأطباء العملية». ويلقبونني «السيدة الدكتورة»، مع أنهن يعرفن أني لا أحمل هذا اللقب؛ ولست أنا من يحتاج إلى هذا اللقب بل هن.

تسأل المريضة كورا إن كان رئيس الأطباء البروفسور على بينة أنه يخرب جسمها، ويقطع لحمها، بهدف العلاج بالتأكيد، ويقص منها الخبيث لأنها لا تستطيع التخلص منه بنفسها. مع أن كورا لا تفضل تعبير «الخبيث»؛ إلا أننا نحمله فينا بالمعنيين الحقيقي والمجازي، لماذا ننكر هذا؟!. لكننا نفضل تجاهله، هذا صحيح لكن هذه حكاية أخرى؛ أليس كذلك. نفضل ألا نفعلها حتى لو دخلنا تحت مبضع الجراح. وتجد كورا مبالغة كبيرة في مثل هذا الهذيان، وكذلك في رغبة المريضة سؤال البروفسور عما يبعث الفرح في نفسه عندما يقطع لحمها، بل إنه يبعث فيه اللذة أيضاً، وهو ما يثير ريبة كورا من جديد؛ لكنها تفضل الصمت.

أم كان علي اختيار الطريق الآخر؟، الطريق الذي اختاره أوربان، ما أدراني؟ تتبدى لي كل الحلول؛ لكني لا أريد أن أعرفها، وأؤجل السؤال. واجبي اليوم هو أن أسأل نفسي عما ينوي جسدي أن يفعله بي. هل يعاديني؟ أرى جسدي، أرى الشقوق التي تمزقه؛ بأي خط ينقش على جسدي؟ وهل

سأتمكن يوماً ما من قراءة الكتابة عليه. هل هذا فرض علي؟ الفرض، الاستسلام؛ كلمات علي الآن أن أتحاشى معناها ذا الحدين.

الحيرة، حيرة موسومة بالذنب تسم الإجراءات الصباحية. وبالتأكيد لا تعاني منها ألفيرا التي تقتحم علي الغرفة، وتلتف كعادتها على محورها الذاتي في وسط الغرفة، تتفحص كل قطعة فيها - بما فيه أنا - بدقة عالية، تفرغ السلة مصدرة ضجيجاً، تودعني بضغط يد خاملة على يدي، لا تقول هذه المرة كعهدها والسلام ختام؛ بل تقول: «إذن أتمنى لك الشفاء العاجل؟»، من المعيب أن تدفع شفقة ألفيرا الدموع في عيني.

ما ليس معيباً هو الانشغال العملي الذي تظهره المرضة كريستينا وعلى وجهها ابتسامة المرضة الكتوم، وهنا يأتي دور الروتين والتحية اليومية التي تدربوا عليها. إنها تفهم وظيفتها جيداً، وأنا أندمج معها في اللعبة. هل اندمجت في اللعبة كثيراً في مثل هذا المناسبات؟ هل يريد جسمي أن يشير لي إلى هذا؟ كورا المرأة الداكنة لا تنكص. تنتظر في الردهة أمام غرفة العمليات، لا تخفي اضطرابها؛ لكنها لا تشي بالكثير، وتكتفي بالقول: «يمكنك الثقة بطاقم الأطباء، كما أن الطاقم يثق بك». أنا أيضاً لا أكثر الكلام وأكتفي

بقول: «تمام». الممرضة ناديجدا تنفذ تعليمات كورا حرفياً، ويبدو أنها فقدت قدرتها على التكلم بالألمانية، من دون أن تفقد ابتسامتها الروسية.

جرح، قطع، فتح شقاً؛ تأخذني الكلمات ذات المعنيين على جناحيها، لقد جرحت نفسك؛ بالمناسبة قطع أوربان علاقته بي منذ زمن طويل، تجنباً لمتاعب قد تعترضه لو شوهد معي. متى حدث هذا؟ ربما كانت تلك الحكاية التي جرت مع باول. كم قضيت ليالي وأنا أفكر فيها. باول القصير، باول المتحمس والمخلص والموثوق فيه الذي كنا نحبه كلنا، ولا نأخذه في الآن ذاته على محمل الجد والذي وضعه أوربان ـ مع دهشتنا كلنا ـ في خدمته حين تقلد منصباً أعلى في الوزارة، وعينه مستشاراً خاصاً، أو جعله لعبة بيديه. وحمّله هو بالذات عبء تنفيذ مخطط عمل عليه طويلاً، وكان المفترض أن يرد بنهايته بلاغ رسمي، شارك فيه بعضنا، يعطي المقدمات لسياسة جديدة بين الشبيبة.

كان علينا أن نعرف سلفاً أن المشروع لن ينتهي على خير، وربما كان أوربان يعرف وضحى بباول قرباناً له. إذن عندما عوقب هذا واختفى في «العالم السفلي» ـ كما سمعنا من محيط أوربان ـ اهتز كرسي أوربان قليلاً. من كان سينتفع لو سقط هو أيضاً؟ على كل حال كان عليه أن يبتعد طويلاً

عن أناس عليهم غبار كثير. كانت ريناتا تتصل بين الحين والآخر وترجو أن نتفهم موقفه؛ لكن حياتنا البريئة كانت قد انقطعت إلى الأبد. لكن باول الذي مرض طويلاً واختفى أشهراً في المصح، باول الذي كان موثوقاً وظل مخلصا لذاته؛ لم يعد يستقيم على قدميه وعين للقيام بأعمال تافهة في مكتب الأرشيف.

البروفسور يأتي كعهده، إنه ليس جباناً إلا أنه مقل في الكلام. ولذلك مرتبك ذلك الارتباك الشائع اللعين، يمد لي يده بلطفه المعهود، نعم أخذت الحقنة. الطنين الخافت الممتع يبدأ في رأسي. «نبدأ؟»، أقول: «نبدأ». يقول: «على خير». يختفي. أخضر في أخضر. خلف باب غرفة العمليات. عندما أَلْحَقُ – أو بالأحرى أُلْحَقُ به؛ لكن لا أحد يتكلم هكذا – بعد عدة دقائق أرى الرجال الثلاثة من جديد، صامتين وساكنين كدأبهم، رافعين أيديهم للاستسلام، وينظرون إليّ متوتري الأعصاب. من يهجم على من؟ من يستسلم لمن؟ لك استسلم / بقلبي ويدي / لك يا وطني روحي ودمي / يا وطني الأوحد يا وطني. عبارة مؤطرة بالسواد فوق أريكة في بيت الجدين.

كما في المرات السابقة عيون كورا العسلية هي آخر ما أراه. الكمامة، ثم شبكة العنابر، أم أنها شبكة الجهاز

العصبي المحيطي؟ مكان معتاد لكنه غير مألوف. لن يؤلف أبداً؛ لكن المعرفة به تزداد المرة تلو الأخرى. تحت، في العمق، أمر بالصندوق المعدني الأخضر الباهت. الأخ الكبير. قال لي أوربان ذات مرة: «علينا أن نعتاد عليه، علينا أن نعتاد عليه في كل الدنيا». في وقت ما، كان قد بدأ يتكلم بصيغة الجمع بأسلوب جديد شبه مؤامراتي. «نحن» مبهمة، تثير ريبة أبناء وطنها، تنتمي إلى محفل أوسع، يعوضها ويسوغ موقفها، كما يبزغ منها إغراء قوي. أجل، لي أنا أيضاً. عاشت طويلاً في مدينتها الواقعية مع ذلك الصندوق المعدني الذي يختفي فيه خط هاتفها بطريقة مؤامراتية، وعاشت في الآن ذاته في مدينة أخرى، مدينة الأمل والإنسانية، التي كانت وطنها الحقيقي أو ستكون، الوطن الذي ستنتزعه من مخالب المستقبل، الذي سنخلقه لنا «نحن»، الضمير الذي كان أوربان أيضاً يعنيه.

في أي وقت شعرت أن الخطاب لا يعنيها عندما يقول أوربان «نحن»؟ لم تكن هناك ـ كما أظن ـ مناسبة خاصة بعينها لهذا الشعور؛ بل تراكمت عدة مناسبات عادية وغير عادية، فأنتجت ذلك الألم الأزلي، الذي أدى إلى قناعات يجافيها أوربان. ولم تشعر بأدنى ألم عندما علمت أنه اتخذ مع ريناتا شقة بثلاث غرف في شارع كارل ماركس، ومكتباً في إحدى الوزارات إلى الأبد. الشقة والمكتب اللذين غاب

عنها وهرب منهما أيضاً إلى الأبد، لا شك يساورها في هذا ولا ثانية واحدة، وقد وجد بفراره هذا حيزاً له في وجدانها، ظروف عضال.

فضح، وانفضح، وكشف عن الأحشاء، التي لا يستطيع متنبئو العصر الحديث التنبؤ بها لا خيراً ولا شراً. يا لاشمئزازي من فضح الآخرين، من التعري. من الحياة الخاصة تغدو بعد شعيرة مبتكرة حالة علمية. الشقوق، حسب خطة مسبقة، وكل ما عداها خطأ فني. قالت لي الجدة: «من لا يسمع يجب أن يحس، ومن لا يحس يجب تجريحه عميقاً. ومن لا يجرح نفسه بنفسه - من لا يجرأ على هذا - يضع بين يدي الآخرين حجة لجرحه؛ أيها البروفسور». مرافق وإجراءات فنية لطالما طرحت «الروح»، «الوعي»، سمه ما شئت، عزلاء على الأرض، عندما أسلمت إلى التضليل. والآن يمارس التدليس على الجسم لتأخذ الكلمة أخيراً حقها الكامل.

عمل يدوي خالص، يد ماهرة متدربة متمرنة، مغسولة مدة ربع ساعة وتقيها قفازات بلاستيكية، تحاول الوصول إلى حقيقة الجسد التي ظل يخفيها طوال الوقت. يد تنبش في الأحشاء، تسير على خطة متينة؛ أي على طريق فرعية ماكرة، تتوغل من دون أن تجرح الأعضاء الأخرى إلى جذر

الشر، إلى خراج الالتهاب؛ هناك حيث تتحد نواة الحقيقة الملتهبة بنواة الكذب، إنهما متطابقان سواء أقررت بهذا أم لن تقر أيها السيد البروفسور. بينما على الممرضة ناديجدا أن تبقي الجرح مفتوحاً وتعمل على مص الدم. بينما تراقب كورا الأجهزة وتمسد جبيني بين الفينة والأخرى، إنها مجزرة. أظن أنا قضينا هذه المرة على الخراج نهائياً.

أين أنا؟ السؤال التقليدي الذي يطرحه البالغون ولا يمكن الرد عليه كلياً، أو لا يمكن الرد عليه إلا رداً سخيفاً. تقول لي الممرضة تيا رقم غرفتي كأننا في فندق. على البروفسور ـ الأخضر في الأخضر ـ أن يذهب؛ لكنه يعلن أنه سيعود حالاً: «أنا واثق أنا قضينا هذه المرة على الخراج نهائياً».

تدخل أنت، كم الساعة الآن؟؟. لقد دخلنا العصر. أقول لك: «الاستيقاظ، شيء رائع دائماً». تقول: انتهينا، تجاوزنا المحنة ولم تلاحظي أدنى شيء. كان ينقصنا أن تشعري بألم العملية. يأتي دكتور كنابه ويسأل الممرضة تيا عن درجة حرارتي. يقول: هذه المرة قضينا على الخراج نهائياً. لم يعد منه أدنى أثر، يستحيل أن يكون قد بقي منه أثر. يلحقه على الفور معاون رئيس الأطباء، الذي جاء ليعلمني باستحالة بقاء أثر للخراج هذه المرة. حسب كل التقديرات الإنسانية، يقول: «أسألك لماذا لا تضحك؟» تقول: «بعد الآن». أقول: «طيب؛ لكن علينا أن نستعيد ضحكاتنا من جديد».

أقول: «بالمناسبة أظن أن المتاهة في عقلي تطابق المتاهة في قبونا». تنظر إلي مذعوراً، فأقول: «لا، أنا لا أهلوس. تعرف! ما زلت أسير في تلك العنابر تحت الأرضية». تقول: «هل هذا وقتها الآن؟» أقول: «أجل؛ أظن أن هذا وقتها. بالمناسبة، قل لي هل وجدوا أوربان؟ تستعيد وجهك العابس وتهز رأسك. أرى أنك لا تريد أن تخبرني وأنا لا أريد أن أعرف». أقول: «قال لي مرة إن الحقيقة نسبية، هل تتذكر». تهز رأسك. كان أوربان قد قال منذ سنوات إن الحقيقة إحدى وظائف التقدم في التاريخ؛ وكل ما عداها محض أحاسيس وضيعة. سألته: «هل يعني هذا أن الغاية تسوغ الوسيلة؟»، تردد ثم قال: «إلى حد ما». «إلى أي حد؟؟»؛ سألت هي، وردّ هو هامساً لأنهما كانا واقفين بين الركاب في الترام: «هذا يختلف من حالة إلى حالة».

- «ومن يقرر هذا؟».

أوربان: «صاحب الرأي الأبعد، وفي جميع الأحوال حسب المصالح، وليس حسب الحكم الأخلاقي؛ فهذا الحكم سيعزلنا من السلاح، ماذا تظنين؟، وإلا فلنرفع الراية البيضاء فوراً. أم ما هو رأيك؟».

قالت هامسة: «لا أعرف؛ حقاً لا أعرف».

- «فكري في الموضوع ملياً».

ذهبت في وقت ما، يبدو أن الممرضة تيا ليس لديها الكثير لتعمله، تدخل الغرفة بين الفينة والأخرى، تفحص أوعية المغذي، تعدل السرير ناحية الرأس في وضعية مريحة، تجفف وجهها بخرقة باردة، ترطب شفتيها وتجويف فمها، وتقول: «إذن ستكون الأحوال أحسن بكثير؛ لكنك تعرفين هذا، فأنت صرت خبيرة». عندما يأتي البروفسور - وهو أبيض في أبيض - تكون الممرضة بصدد قياس درجة الحرارة، تريه الميزان، فيقول: «أرأيت؟، الحرارة أفضل بكثير، طبعاً سنثابر على حقن الدواء يا ممرضة تيا كل خمس ساعات إذا سمحت. هذا ما كان ينقصنا؛ ألا ننتصر على هؤلاء الأشقياء». الممرضة تيا أيضاً واثقة أننا قضينا الآن على الأشقياء، لا أشعر بوخز الإبرة عندما تحقنني، للأسف ليست مناوبة في الليل؛ لكنها ستكون على رأسي في الصباح الباكر.

لحسن الحظ كورا مناوبة في الليل، كورا باخمان تأتي عندما يحل الليل، وتقول: «هذه المرة سبر السادة الأعماق فعلاً، لم يعد من الخراج شيء». أضع يدي في النار على هذا، أنظر إلى يد كورا، أراها رقيقة وأنثوية جداً، للمرة الأولى يجول في خاطري أنها قد تكون أماً، أسألها فتومئ: «ابنة في الرابعة، لويزه».

- «ومن يعتني بها إذا كانت على رأس العمل؟».

- «أمي؛ هذا إذا لم تكن لويزه في الحضانة».

- «وأبوها؟».

تقول كورا: «أنا مطلقة».

أقول» «خسارة». تصمت كورا، وبعد برهة تضيف أنها تظن أحياناً أن التفاهم بين الرجل والمرأة في هذه البلاد يقل يوماً بعد يوم. ثم تسكت. على كورا أن تذهب، وتعد بالعودة قريباً، وتقول: «نامي».

فاتني كثير من الوقت في النوم، وعموماً فإني أفوت هنا كماً هائلاً من الوقت، سأدرك لاحقاً أن هذا أول شعور لي بعالم الأصحاء، عندما تعني الصحة تعني أن لا نظن أن المرض هو الممكن الوحيد في الحياة؛ أدافع عن نفسي. لم أتحسن إلى هذا الحد، من جديد أنزلق على سكة الحلم المعروفة لي بخفة إلى البرزخ، حيث أشعر بالراحة. لماذا؟ لا أسأل؛ لكن شيئاً ما في داخلي يعرف الجواب، لأن الأفكار كلها تتوقف، لأن الفوارق تزول نهائياً، لا سلطان هنا للخير والشر، الحقيقة والكذب، الصحيح والخطأ. استجمام الضمير المجهد. اللون رمادي. المرأة السمراء تمسك يدي، لا أدري من يقود الآخر، تبتسم وتقول لي: «لكن هذه هي المرة الأخيرة». أشعر ببعض الحسرة مع أن هذه الفرصة الأخيرة

ما تزال أمامي، مرة أخرى نطل من نافذة غرفتنا في برلين، الفناء تحتنا مؤطر في مربع أضلاعه البنايات الأربعة. فوقنا رقعة السماء المربعة التي لا تعتم كلياً وسط المدينة. الحزم الضوئية الضيقة النابعة من بعض النوافذ. الموسيقا الصاخبة من الطابق العلوي، كل شيء على ما كان وجديد في الآن ذاته. نحلق فوق الدرب المؤدية إلى البوابة الرئيسية المشرعة - مع عجبي - على مصراعيها.

شارع فريدريش عاد يعج بالحفر، حفر عميقة بمحاذاة الرصيف، تحدها أكوام الحجارة والرمل. نسير في تحليقنا مع الحفر وننظر إلى خليط الأكبال والأنابيب تحتنا. الكشف عن الأحشاء. تقول كورا: «أجل؛ يمكن إطلاق هذا التسمية». نمر بزبائن آخر الليل الخارجين نصف سكارى من حانة «كلاينن ريفيه»، ونجلس في مفرق شارعي هانوفر وشوسيه على كومة رمل جمعتها الآليات. ينبعث من العالم السفلي شبح ضوء، نتمكن من اكتشاف الطبقات على جانبي الحفر المتهدمة، والطبقات التي خلفت فيها عشرات الأعوام خرابها. علم آثار الدمار.

تعطيني كورا - التي مازالت ممسكة بيدي - إشارة، ننزل في جوف الحفر إلى الطبقة الدنيا التي كشفت عنها الآليات. أقول لكورا: «هادس؛ إله العالم السفلي الذي يخطف

الحسناء برسيفون على عربته الذهبية، لكن حزن أمها ديميتر وعدم تعاونها عملا على أن تصعد ابنتها ثلثي السنة إليها، في عالم النور الذي يستمد خصوبته منها». لكن كورا لم تتعلم الميثيولوجيا الإغريقية في المدرسة. نقف على حجارة مكسرة، بلاط مهشم، جدار رخامي يكشف لنا إحداها عن أغصان خضراء، وآخر عن سلسلة من النقانق؛ لاشك أنها ملحمة مهدمة من الطراز القديم، من القرن المنصرم، كما أظن. بقليل من الكشط نكشف عن طبقة أعلى، حجارة جدار حفرت فيها حروف كريلية، أفك حروف اسم، أقول لكورا: «بافل كان هنا». هي أيضاً تستطيع قراءة الروسية فتقول: «فلاديمير الذي جاء من نوفغورود ربما كان يفضل البقاء هناك، رسل زمن زائل». أهمس لكورا: «الأحوال تتبدل ودائماً يردم اللاحقون شواهد السابقين على عجل بحجارتهم وإسمنتهم الذي يسير عليه الجند الجدد». وإذا حفرنا أعمق قليلاً في الجدار سنجد عظاماً. ثقوب الرصاص في جدار المنازل فوق الأرضية وتحتها شاهدة على تبادل حام للنار. بديهي أن لحم البشر دخل في خط النار أيضاً.

لا نحفر، ونوالي حركتنا في شبكة الحفريات، نتبع أنابيب مياه الشرب والصرف الصحي التي تسيل المياه في بعضها، وينتهي بعضها الآخر صدئاً في زقاق. نجد علب توزيع تحللت فيها الأسلاك منذ عهد بعيد، ومددت بجانبها خطوط

جديدة في علب توزيع جديدة؛ فهذا هو هدف أعمال الحفر هذه، أسلاك يتدفق فيها التيار الكهربائي، تعبرها المكالمات الهاتفية، سواء تصنتوا عليها أم لا، ولن أكون شاهدة عليها ذات يوم، بعد مرور نصف قرن من الآن، عندما تفتح هذه الحفر مرة أخرى، ويقف عليها آخرون، لم يولدوا بعد، ويتفكرون عميقاً في نوايا أسلافهم الغامضة عليهم.

«دعك من هذا»؛ تقول كورا التي تقرأ أفكاري، وهو ما لا يدهشني، «لا تشغلي رأسك بها الآن». أقول: «ولكن لو تذكرنا كيف تعيد الأشياء نفسها دائماً. تقول كورا: «الآن تصبحين تافهة». إذن فهي أيضاً تستخدم مثل هذه الكلمات. ثم تضيف: «وبالمناسبة، كل إعادة خلق جديد لمن يراها للمرة الأولى». هكذا إذن، أصمت بأدب. تحاول أن تخفف عني، لقد كلفت بإعانتي على الخروج من الزقاق الذي دخلت فيه، لا تكف عن استخدام وسائل وضيعة. أضعها على المحك وأسألها إن كانت تعرف كلمة الخسران. تنفخ الهواء من منخريها: «كل طبيب يعرف معنى هذه الكلمة؛ وكيف لا يعرفها». أقول: «من لم يصب تماماً لم يخطئ أيضاً. تضحك كورا.

أقول: «أعني ...»، فتقاطعني هي بفظاظة متخلية تماماً عن تهذيبها وتعاطفها المعروفين، لتقول إنها تعرف بالضبط ما أعنيه: «ذلك الخسران التام - الذي يهلل فيه المرء - يتمرغ

فيه بالنعمى». هنا أضحك أنـا. لكن مـاذا لو كان هذا هو الحقيقة بعينها، لو كان هذا من وجهة نظر عملية مجموع عناصر الحياة هو الخسران؟ تقول كورا: «اسمعيني الآن»، خرجنا من الحفر واتجهنا نحو شارع فريدريش، ننعطف يساراً في جادة أونتر دن ليندن، كلها خاوية، باستثناء بعض أبـراج الحـراسة التي تهيم هنا وهنـاك كـأرواح ضائعة في المدينة التي يزداد إعجابي بها فجأة، تقول كورا: «اسمعيني!! ببساطة ليس هذا هو الوقت المناسب لمداعبة شطحاتك»، على يسارنا تمر الجامعة سريعاً، لا وقت للتلويح للأخوين هومبولدت. المتحف الذي كان مخزناً للسلاح.

أقول: «كورا لا يمكنك إطلاق هذا الحكم». فتجيب هي: «لم لا؟؟!!، لأني أصغر منك في السن؟». أقـول: «هـذا أحد الأسباب؛ ثم لأنك طبيبتي». تقول: «أي أني لست نزيهة». الآن يصعد فيها الغضب أيضاً، وهو ما لم أتوقعه منها أبداً. تقول: «إذن سأتركك». تسحب يدها من يدي. أقول: «أرجوك لا».

فجأة نجلس على درج قصر الجمهورية. أفكر... كذلك هو كومة حجارة، زجاج وإسمنت، بني ليندنر، ربما يكون المكان الأكثر نزاهـة في هـذه المدينة المنـذورة للاندثار. العاصمة. مركز القوة. مركز قوتين. المدينة التي كانت مقدسة ذات يوم، ودنست. تتقوض أمام أعيننا. ولا عودة من القفر الجديد. يثقب اليقين قلبي.

أقول: «كورا أنت مكلفة بتأدية مهمة، أليس كذلك؟».
تقول كورا إني فعلاً فاسدة. إنها الآن حزينة. أقول: «أجل أنا فاسدة، والآن تدركين ما كنت أقصد بالخسران؛ من يركب النمر لا ينزل عنه. والآن اذهبي إلى مديرك وافشي له سر جهاز مناعتي المعطوب. اسأليه إن كان مطلعاً على الخرائط القديمة ذات الرقع الكثيرة التي دوّن فيها على عجل: هنا المنطقة المحرمة. اسأليه إن كان قد وجد - عندما كان يقطع لحمي ويفتح جروحي ويكشف المناطق الفاسدة في جوفي - تلك الرقاع البيضاء، التي لا أعرفها أنا نفسي، لم أستكشفها ولا أعرف لها اسماً، وتسيطر عليها الحيوانات الكاسرة. اسأليه إن كان يتصور أن أي قوى دفاعية في العالم تتحطم على هذه الرقاع الصامدة».

«عم أسأل من؟».

- «آه منك كورا، أين نحن؟؟».

– حيث كنا دائماً يا عزيزتي، وأنت أغرقت قميصك من جديد في العرق. تدخل المُمرضة الليلية. غيرت ملابسها بعدة حركات خفيفة، تزعمان أن رائحة هذا العرق تختلف كثيراً عن رائحة العرق السابق. تعنيان أنها رائحة تدل على الاستشفاء. تسأل كورا: «ألا تلاحظين هذا بنفسك؟». أسألها: هل مازلت في مهمة؟ عم تتحدثين، عن أمرك لي بعدم إطالة

التفكير. لا، يجب ألا تطيلي التفكير. على المرء أن يتهلل كلما تجاوز عشرة، وعليه أن يقرر استعادة صحته. يقرر؟ نعم، يقرر، تشدد كورا على عبارتها. يقرر بحزم ولا يتراجع عن قراره. طيب، تمام. ليتقبل الله دعاءك. تضحكان معاً. ثم تذهب كورا.

ألفيرا تصحيها. تقف في وسط الغرفة، تتفحص المكان، ثم المريضة، تبدو على وجهها علامات الرضا، تخشخش السلة، ثم تتقدم نحو سريرها، تمد إليها يدها، تعقب: كنا على شفا حفرة، نجونا بشق الأنفس، كان يمكن أن تنتهي فيها مثل شربة الماء (قاب قوسين أو أدنى)، ها؟

كيف أرد على هذا السؤال أو كيف أفكر فيه، أم أن أحدنا يعرف فقط ما يسمع؟ على من لا يسمع أن يحس، لكني لا أتمكن من الإحساس. لجملة ألفيرا وقع هائل. الاستسلام للخوف في هذه اللحظة جنون. لم تقل ألفيرا إلا ما كان علي أن أعرفه. ليس بوسعي الآن إلا الاستغراب من عدد الحجب التي تتستر بها الحقيقة عن أعين الإنسان الضعيف، وبأي هيئة شاذة تطرأ من ثم عندما يأتي أوانها. لقد أعلموني كلهم منذ زمن بعيد، الأطباء بوجوههم الكتيمة، الممرضات بتكلفهن وأخيراً أنت أيضاً، يا عزيزي، ببخلك في الكلام. لكني لم ألتقط هذه الإشارة، أنذرت قوة ما في داخلي الحقيقة

من أن تتكشف لي. وكان يجب أن تأتي ألفيرا وتتفجر بما التقطته في غرفة الممرضات والمطبخ وتسرب إلي هذه الجملة العارية الجلفة. إنها الحقيقة. لحظي العاثر. وحتى الخوف يصل متأخراً، مثل كل شيء آخر.

لكن لماذا الحظ العاثر؟ لقد تجاوزت المحنة، ويفترض أن يختفي إحساسي بالمصيبة. لكنه يكبر، ينمو وينمو حتى أنتفخ به تماماً. الانهيار بعد تجاوز الخطر، هذه الحكاية المعادة السخيفة. ها أنا الآن أركب بغلاً، ينقلني على قاع بحيرة بودن زه. لا شك أني رويت مثل هذه الأقوال للبروفسور الذي جاء في زيارة خاطفة، في ردائه الأخضر، ليستمع إلى تقرير الممرضة مارغوت عن تحسن وضعي. بودن زه؟ يسأل مرتبكاً ويلقي نظرة على الممرضة مارغوت، التي ترفع كتفيها قليلاً وتلوي شفتيها. ثم يعقب: آه، بودن زه. لكن ما الذي ذكرك بهذه البحيرة الآن. أليس هذا هو الواقع؟ يقول البروفسور بجفاء: بلى، واقع، واقع. لكل منا حقيقة خاصة به، تعرفين هذا ولا ريب. أسأل: وطبعاً هي تعرف حقيقتي؟ يجيب: طبعاً. مفادها: كنت مريضة، مريضة جداً، والآن تعافيت، تغلبت على المرض، تتحسنين وكل ما عدا هذا هراء.

لن أتمكن من حمل بروفسوري على النطق بكلمات تعبث أشباحها في رأسي على غرار «الموت»، بينما تتكفل الممرضتان

مارغوت وتيا بغسلي، ترتيب سريري وعدم الكف عن التحدث معي في مواضيع مريحة، مثلاً عن محاولات الممرضة مارغوت الفاشلة في تخفيف وزنها. فأعلق أنا: فعلاً موضوع مناسب تماماً على سرير امرأة يقتلها الجوع، فتضحكان. إنهم اليوم يحملون كل شيء على محمل الدعابة، طبعاً بناء على تعليمات. هذا واضح لي وهما تعرفان أني أعلم.

أتخيل البروفسور وقد أوقف الممرضة مارغوت في الممر وقال لها: «حاولي كل ما في وسعك كي لا تفلت من بين أيدينا، إذا سمحت». بعدها أنادي الممرضة تيا وأسألها: «في المستشفى لا يحكي أحد عن الموت»! تلتفت إلى الوراء، تحدق فيّ وتقول: «لا».

ها أنت عرفت الآن؛ يقول أحدهم في داخلي بنبرة انتصار، لكني لا أريد أن أعرف. هل أود أصلاً تكلف كل هذا الجهد للعودة، لأبتعد خطوة واحدة عن تلك البوابة التي دفعني إليها من دون إرادتي طوفان ما زلت أذكره جيداً. ما زلت أذكر، وفي الحال سأنسى تلك اللحظات، حيث كان أدنى تنازل، أدنى موافقة ستأخذني عبر البوابة مع التيار. الغياب إلى الأبد، من دون حسرة وأسى. ضيّعت الفرصة. لماذا امتنعت عن الموافقة. أنا مرهقة الآن. الآن سأستسلم للنوم من جديد. ألم أعد أن أعترف بالجميل إذا تحررت

طويلاً من الضجيج؟ أحاول الاعتراف بالجميل، لكني لا أعرف كيف أعبر عن الشكران.

ستعرفين هذا مستقبلاً، يقول صوت بنبرة مواسية خلال نومي. كل شيء يعاد. القارب الشراعي الذي أتجول فيه على سطح بحيرة جميلة وحولي الكثيرون. اسمه اسبيرانزا.

آه، أفكر عندما أستيقظ على بعض المرح: ما كان من الضروري أن يعاد بكل هذه المبالغة. أراك عندي، لا تتوقف عن الحديث عن حرارتي المعتدلة ظهراً وعن ارتياح البروفسور عن وضعي. لا تريد سماع ما قالته ألفيرا في الصباح وتقول علي ألا أحمل هذه الخرافات الارتجاعية على محمل الجد. تضع باقة ورود في مجال نظري، كل أصناف الورود من حديقتنا، تذكرني أين زرعناها، تعد الزهور التي ستتفتح عندما أرجع إلى البيت، عن قريب، كما تقول. أمام ناظري تلوح صورة غامضة للرجوع إلى البيت، أجعلها تشحب فوراً؛ لأني لا أتصور أني سأكون قادرة على الخطو خطوة واحدة خارج هذا السرير. أقول: بالتأكيد خفت علي كثيراً. تقف إلى النافذة، تحلق ببصرك عبر المنظر في الخارج، المنظر الذي لم أره حتى الآن، وتقول: «وبماذا تفكرين؟». بالمناسبة توقفت الأمطار عن الهطول منذ ثلاثة أيام، ربما تمكنوا من إنقاذ بعض المحاصيل.

بماذا أفكر؟؟ أدرك أني عملياً لا أفكر. حقيقة لم أفكر منذ زمن بعيد من دون أن أفتقد التفكير. حقيقة كنت أشعر بالراحة من دون تفكير. أقول لك هذا، تلتفت إلي وتقطب جبينك. أقول: لنقل كنت أشعر بالراحة. كل شيء صار في طي النسيان. تقول: بالله! ولا تعقب؛ لكنك تنطق الكلمة بتلك النبرة التي مازالت تثير حنقي رغم كل هذه الأعوام التي قضيناها معاً. أقول: قصدي أن التفكير قد يكون مؤلماً وذلك عندما يقايضه المرء سراً بآلام أخرى، نوع من أنواع التجارة مع الذات، تفهم؟ صمت. تقول: إذن فهوايتك هنا ابتكار مثل هذه النظريات. لا، هذا ما طرأ على بالي الآن. لا تجد تفكيري بخير، وإلا؟ كلمة «خير» لا تلائمك. عندي انطباع بأنك تريد إبعادها عن محيطي بعض الوقت، يبدو أنها لم تثبت جدارتها حتى الآن. هذا يناسبني أنا أيضاً. لنتحدث عن أهون الشرور. وبذلك يكون تفكيري أكبر الشرور علي؟ سيكون علي أن أفكر في هذا، أقول وأحاول رسم ابتسامة على شفتي. أعرف بماذا تفكر: لا شر أكبر من الموت، لكنك لا تقولها. نصمت برهة ويعرف كلانا خلال هذه البرهة بماذا يفكر الآخر، ونصل في الوقت ذاته إلى النتيجة ذاتها، أقول: «أنت؛ هل وجدوا أوربان؟».

أقرأ من ملامحك أنك كنت تتوقع هذا السؤال، وأنه لا يلائم هواك. وأنك تتساءل: «ما لها ولأوربان». «نعم يا

سيدتي؛ وجودوه ميتاً». كنت أعرف. لا أسأل كيف مات. لن أسأل اليوم. عندما كنت ضعيفة كان من حقي طرد أي زائر بعد وقت قليل، حتى أنت. وماذا أفعل الآن!. أسأل: هل اتصلت بريناتا؟ تقول: لا. من دون تعليل. لو أني في البيت لكان من واجبي الاتصال بها. مع مرور الزمن صار كل منا يعرف واجباته. أقول بعد برهة: لقد كبرنا في العمر؛ ألا ترى هذا؟ تقول: سنقدر على تحمل مرحلة أخرى.

شيء ما يزعجني. أتذكره بعد أن تذهب: أبدأ من جديد في قول ما تريد سماعه أنت. يبدو أن زمن اللامبالاة قد ولى. أعرف معنى هذا، لكني أتجاهله. بالمناسبة، التقينا بريناتا آخر مرة في حفل زفاف يوتا. كان بديهياً بالنسبة إلينا كلنا أن تحضر ريناتا وتودع يوتا، وألا يأتي أوربان. قالت: الدانمارك. لم يسبق لأحدنا أن كان في الدانمرك. كان الدبلوماسي الدنماركي الشاب الذي ستذهب معه يوتا لطيفاً، وعمليا لم يكن على بينة تامة باللعبة التي يشارك فيها، لكن أحدهم أوحى له أن يساعد الناس عندما يكون بوسعه مساعدتهم، ولأن الفتاة الحسناء لن تتمكن من مغادرة بلادها إلا بالزواج فإنه تزوجها إذن وضيّف أصدقاءها، الذين لم يكونوا في قمة السعادة، كما هو الأمر في حفلات الزواج عادة، والمأكولات الدنماركية، وراقب كيف يرقص الجميع مع زوجته الشابة، التي لا يحق له أن يلمسها أدنى لمسة، والتي ستتمكن من

العمل في كل أرجاء الدنيا مترجمة؛ فلن تكون عبئاً عليه، بالتأكيد لا. في وقت متأخر وعند منتصف الليل تقريباً جاء أوربان خلافاً لكل التوقعات. كان يريد اصطحاب ريناتا؛ فعليها بالنتيجة أن تلتحق بالخدمة في الصباح الباكر. هزت رأسها. بذلنا كل جهودنا لئلا نظهر كرهنا لأوربان، وهو ما حدا به أن يجلس إلى الحانة المعدة على ارتجال ويبدأ بتناول المشروب. كانت هذه المرة الوحيدة التي تتشاجر فيها معه. وقفت بجانبه وقلت: «انقلع». أدار أوربان ظهره ومضى. بعد وقت طويل أخذنا ريناتا إلى البيت بسيارة أجرة. لم ينبس أحدنا بكلمة.

أقول للممرضة تيا: لا داعي لقياس الحرارة، ليس لدي حمى. تقول: رائع، ليس هناك أسعد من هذا الخبر لدي. الآن حان وقت السعادة الحقيقية، أليس كذلك؟ علي أن أقول نعم، الممرضة تيا إنسانة خيرة، أنا واثقة من أنها صلت لأجلي وستحمد ربها مساء اليوم على نجاتي. تقول وهي تضيف حقنة جديدة إلى المغذي فوق رأسي: «كلها بشارات خير. قريباً سنتخلص منه هو أيضا، وكذلك شبكة الأنابيب كلها». تشرح لي وهي تفحص السوائل المطروحة من الدرينات في كل جسمي: «إنها مقرفة». أسمع منها هذه الكلمة للمرة الأولى، لقد كانت حتى الآن عملية جداً؛ بل ورقيقة حتى في الحديث عن الخراطيم الداخلة إلى جسمي والخارجة منه.

أقول وأنا أقرب إلى الخوف: «لكنك لن تحرميني من المغذي، وإلا سأموت جوعاً». هنا تصبح الممرضة تيا سليطة اللسان، وهو ما لم أكن أتوقعه منها أبداً؛ فتقول: «الناس الطبيعيون يأكلون بالفم!! هل نسينا؟».

مما تخاف، من أن تموت جوعاً؟ يضحك البروفسور ضحكة أبوية، لا بد أن تيا نقلت له كلامي. لا يبدي اهتماماً بدرجة حرارة المريضة، حتى أنها تشعر بلذعة من مس الكرامة. يقول: تموتين جوعاً؟ ليس موتاً جميلاً، لهذا سنعدل عنه وإلا؟ يريد أن يسمع مديحاً على ما عمله من عمل متقن، ما لم يحدث حتى الآن. لا بد أن تغييراً ما جرى في هذه الغرفة. جميع الناس يظهرون لها اليوم وجهاً آخر. بإحساس عميق بالذنب تقول: نعم، مشواري معك كان ممتعاً حقاً. فيرتبك، السيد البروفسور، ويودعها على عجل؛ لكنه يقول على عتبة الباب قبل أن يخرج: «إعجابي بك ازداد هذا المساء كثيراً».

أوربان مات وإعجابهم بي يزداد! سيزداد إعجابهم بي أكثر عن قريب بحيث لن ينظروا إلي شزراً، ولا ينبهونني إلى ضرورة التعاون والصبر. أم أنهم لا يهتمون بي لأنهم ما عادوا يتوقعون مفاجآت غير سارة مني. نحن أيضاً لم نكن نتوقع مفاجآت غير سارة من أوربان، ولا مفاجآت سارة. على العكس كنت قد مسحته تماماً من دفتري، ما يجب أن

يقال الآن بوعي تام. كان أوربان قد صار ذلك الإنسان الذي يتعاون في كل شيء وينوي التعاون في المستقبل أيضاً. حتى أثقل عليه ما لا يطيق التعاون فيه. ففاجأ الجميع. أليس في هذا بصيص من الأمل.

الفرق أن الأمل يصل إلى نهاية، يجب أن يصل إلى نهاية، ما يجب الإقرار به أيضاً هنا. متى أدرك هذا؟ فجأة، عندما طالبوه بالتنكر لخطبة نارية ألقاها في اليوم السابق، خطبة متطرفة نسبياً، ألقاها من شدة يأسه، كما قالت ريناتا في الهاتف. اليأس مما؟. من خسارة كل شيء إذا لم نعد أدراجنا. قلت: جاءت متأخرة، متأخرة جداً، جاءت بعد فوات الأوان. أم أني فكرت هكذا ولم أقله كي لا أزيد جرحها إيلاماً. بجميع الأحوال صدر منها شبه جواب بصوت منخفض، ومن يأسه لأنه لم يتكلم قبل الآن. فرددت عليها أيضاً بصوت منخفض: ولماذا لم يفعلها؟؟. «لأنه كان يظن أن الخسارة ستكون أعظم»؛ قالت ريناتا وأجهشت في البكاء من دون رادع.

والحق أنه كان أذكى من أن يرتكب هذا الخطأ؛ إذن فقد كان بين فكي الكماشة منذ زمن بعيد. أوربان، الذي كنت معجبة به يوماً ما، أوربان الذي قل إعجابي به سنة بعد أخرى. الذي مسحته من دفتري، كأن لي أصدقاء كثيرين عوض أن .... عوض ماذا؟ أناقشه؟ حتى الآن، حتى بعد

هذه النهاية، أعرف أن النقاش معه كان عقيماً. فقد نبذت المخرج الوحيد الذي اختاره أوربان، المنفذ الوحيد الذي اختار أوربان. لم أستسلم للغواية. نحن مختلفان كثيراً، أنا وأوربان، من حيث الأساس. لقد عرفت الفرق بيننا باكراً جداً وجعلته يدركه. قلت له: قد أغفر للأغبياء هذا السلوك؛ لكني لن أغفره لك. ومنذ ذلك الحين صار يتجنبني تماماً وأنا صرت أتحاشى اللقاء به. ولا حتى في الشر. هذا كان الخيار المريح لنا كلينا.

واتضح مع مرور الزمن: إما أن يبيع أحدنا نفسه أو يبيع ما كانوا يسمونه «القضية»، «قضيتنا المشتركة». تساقطت جميع النعوت الأخرى واحدة بعد الأخرى، وضعت هذه القناعة سنوات كثيرة تحت ضوء ساطع.

تواظب كورا على القول: «أنت تفكرين كثيراً، تتكلمين كثيراً. كفاية». أحدهم ينادي كورا. من المذياع تصدر أنغام داكنة من الكلارينيت. هل مثل هذا الشيء مازال معروفاً في الدنيا. تنام. لا تحلم وتستيقظ حين تدخل الممرضة حاملة ميزان الحرارة، تتابع النوم ولا تلاحظ أن الممرضة سحبت الميزان من فمها، تنام على الرغم من الأصوات التي تواكب ألفيرا، وعلى الرغم من زيارة البروفسور القصيرة، التي تعلم بها من فم الممرضة كريستينا لاحقاً وهي تقول إنه كان

سعيداً جداً، إن الشمس مشرقة وربما ما زال في المحصول بعض الخير؛ لكن باستطاعتها الآن أن تغسل وجهها بنفسها، بيدها اليمنى التي فصلت عن المغذي، أليس كذلك؟ توافق المريضة على كل ما تقوله الممرضة وتفعله.

تنام فور خروجها، ترى شعاع الشمس على الجدار، تراه وقد انتقل كلما فتحت عينيها بين الفينة والأخرى، تراه وقد اختفى. ثم تقف أنت إلى السرير وتقول: الطفل ينام نوم الهناء. أقول: أنا مرهقة. تقول: هذه ليست أعجوبة. أنا أجْد أنها أعجوبة.

أتحدث عن كهوف تنشأ فيها المشاعر. لا أستطيع قول من أن أين أعرف. أدرك أني لا أستطيع إقناعك بكل ما عايشته. أصلاً، المشاعر لا تنشأ، إنما يذوب عنها الجليد وكأنها كانت متجمدة. أو مخدرة.

- ما الذي خدرها.

- الصدمة بأن كل ما أقوله أو أكتبه مزيف عبر ما لا أقوله ولا أكتبه.

- هذا طبيعي، يا عزيزتي. سنحتفظ به لأجل المستقبل. تمام؟

- نعم. كيف مات أوربان؟.

- شنق نفسه في غابة. وجدوه بعد أسابيع.

- ريناتا، يا إلهي، ريناتا المسكينة. سيكون عليها أن تعيش طوال عمرها مع هذه الصورة.

تقول إنك اتصلت بها وإنها لم تفه بالكثير.

تقول فصلوه من وظيفته أمام أعين الجميع. أرادوا تسليم معهده إلى إنسان آخر. حلت عليه شطحة من شطحاته وجاش وثار، ثم خرج من الاجتماع وانطلق بسيارته. أوقفها في مكان ما. على كرسي السيارة وجدوا ورقة مكتوب عليها: لن تجدوني.

تقول: اليوم تكفي هذه المعلومات. أقول نعم وأغرق في النوم. أسمع عندما أستيقظ جملة: كل ماض محض مثل. تقول هذه الجملة لكورا باخمان، التي تدخل لتوها. فتعلق: الأقدمون كانوا أذكياء فعلاً. أقول: بالمناسبة، عملياً نحن نمتهن المهنة نفسها؛ أنت تتقصين الألم في الجسم وأنا أتقصاه في مكان آخر.

- تعنين الروح.

- جراحوك لن يجدوا الروح أبداً، مهما توغلوا في الأعماق. ولهذا لا يؤمنون بها.

يسأل البروفسور: لا يؤمنون بماذا؟ كان واقفاً عند الباب. يقول بطيب خاطر: آه، الروح. كأنه يتحدث عن حيوان لطيف. أكيد أكيد، نأخذها على محمل الجد.

- عفواً؟

يستنتج الطبيب: الروح بوصفها عامل إعاقة ينبغي ألا نهملها، هناك حالات لا يمكن تفسير تطوراتها إلا بمثل هذه المناورات المزعجة من قوى غير مادية.

- هل توقع وجود مثلها لديها أيضاً؟

يغدو البروفسور عملياً: عندك كانت الجراثيم العامل الحاسم. بكتيريا أجبرناها على التعقل.

- وماذا عن جهاز المناعة الضعيف لدي؟

يكتفي البروفسور برفع كتفيه قليلاً. تضحك عليه السيدتان ويضحك هو معهما.

- جهاز مناعتك أيضاً سنصلحه. ثم يغير مجرى الحديث ليسألها إن كانت لا تزال تشعر بالألم. تصيخ السمع إلى خلايا الألم ولا تسمع استغاثاتها.

يقول البروفسور: أرأيت، هذا خبر مفرح. يبدأ بارتداء القفازات البلاستيكية التي تسلمه إياها الممرضة مارغوت.

يتمزق زوجان حالما يدس أصابعه فيهما. للمرة الأولى تسمعه يشتم: «دائماً يحدث الشيء نفسه، لم يعودوا قادرين حتى على تصنيع قفازات معقولة. تفهم من هم المعنيون. دكتور كنابه، المناوب ليلاً - والذي انتظر طويلاً إلى جانب سريرها ناحية القدمين - كان أكثر وضوحاً في كلامه، شكله يدل على أنه رجل يعلن الكلمات الكئيبة بصريح العبارة. يتحدث عن العيوب، عن الانحطاط وعن الانهيار: أم أنه ليس من المعيب ألا يكون في جناح مثل هذا احتياط كاف من القمصان. يسألها إن كانت تعلم كم مرة عليهم أن يرتجلوا الحلول كل يوم. على كل حال، كيف حرارتك؟.

يبدو لها كأنهم كانوا ينتظرون فرصة يتمكنون فيها من إهمال حرارتها وعوارض المرض الأخرى، كي يبدؤوا في وضع مشكلاتهم في مركز الاهتمام. هي لا تعرف إن كان هذا يعجبها أم لا؛ فالمرء يعتاد على أن يلفت الأنظار ويستدر قلق الناس إليه. تتذكر أن من حقها أن تكون متعبة، وتشير بهذا إلى دكتور كنابه الذي ينسحب فوراً من غرفتها. وتنام. من جديد يظهر المسخ، إنه يطوف، يحلق أمامي بضوئه الأزرق وهو لا يلوي على شيء في العنابر تحت الأرضية. يجول في شعور أبحث له عن اسم من زمن بعيد، بينما علي أن أتبع الضوء الذي بدأ ينير أسماء محفورة في جدران القبو، أسماء لا تبوح لي بشيء. وفجأة أتعرف على أسماء أقارب

ميتين ويشتد في ذلك الشعور الغامض. ثم أبصر اسماً مكتوباً بالطباشير البيضاء على الجدار المغطى بالسخام أمام باب خشبي متضعضع: «هانس أوربان». الآن أتعرف على ذلك الشعور، إنه الهول. يريد الضوء أن يجرني عبر الباب الخشبي، فيصرخ صوت غريب: قف. وأتراجع خائفة من الصدى.

أحلام مزعجة؟ تسأل ألفيرا، وأنا مازلت أسمع الصرخة. تقول ألفيرا إنها لا تحلم أبداً، ولا تصرخ خلال النوم. كنت بصدد رؤية شيء لن أنساه طوال حياتي.

تقول ألفيرا إن الممرضة تيا بنت حلال، إنها أفضل الممرضات، لكن لا تستطيع أن تحدد من هو أفضل الأطباء؛ فهي لا تكاد تراهم، وإذا ما رأتهم مصادفة فإنهم لا يلقون لها بالاً، الأطباء لا يرون إلا العاملين في مجال الصحة وطبعاً المرضى أيضاً، تقول ألفيرا فخورة: «هذا أفضل لي، نعم»، إنها تنهض باكراً جداً لتصل إلى عملها في الوقت المعين، حتى قبل الممرضات، لحسن الحظ محطة الترام أمام الباب ولا يزعجها أن تستيقظ باكراً، فعلى صديقها أيضاً أن يخرج من الفراش باكراً، عنده وظيفة في مطبخ المعمل، يقشر البطاطا ويغسل الخضار، كما أنه يحصل هناك على وجبات طعام، كثيرة وجيدة. الجميع يحترمونه هناك، وضعها جيد فعلاً.

وفي جناح المستشفى يحبها الجميع. وكم من الأشياء تعلمت هنا! يا الهي: «إذن، طاب يومك».

يدخل الزمن في سكتة، تتشكل الأوقات.... صباح، ظهر، مساء. من الصباح والمساء يتألف النهار. والليل يترفع بحدة عليهما. كما أن أوقات زيارات الأطباء أيضاً محددة، لا يعودونها أكثر من المرضى الآخرين. البروفسور وحده لا يتخلى عن عادة الإطلال عليها في الصباح الباكر قبل أولى العمليات. ليسألها: «كل الأمور بخير؟ كيف كانت ليلتك؟».

يبدأ المذياع الصغير بالكلام، أحياناً يقرأ ما يلائم وضعها تماماً؛ لأنها مازالت ضعيفة جداً على حمل كتاب. مرة يقول المذياع بصوت متمرن هادئ: «الموت أيضاً وسيلة عظيمة للحياة». تقتنع بهذه العبارة، ثم تذوي قناعتها. فهي لا تجوز إلا بعد أن يتقهقر الموت، ما رأيك؟ بعدها تبرز الحياة بأنوار أكثر سطوعاً، ما رأيك؟ تدعي أنك لم تفكر بالموت بعد وتجد أن الحياة ليست في حاجة للموت كخلفية حتى تبرز أكثر سطوعاً أو بأي شكل آخر. كورا باخمان- التي قلت زياراتها هي الأخرى- تجد تفسيراً آخر للعبارة. وهو أن الحياة تستغل الموت وسيلة تنتزع بها من شبع الحياة أو مل منها من خموله المهين، كي تدفعه بوساطة الرعب المخلّص إلى أحضان الحياة من جديد، حتى يعمل من جديد بشكل صحيح ويعلم لماذا هو كائن على الأرض.

برأيك لماذا، كورا؟ ـ طبعا ليعيش ـ تقول أنت: «هذا هو الجواب السليم».

كورا تغادر. أقول: ليست على مزاجك – لم لا – أنت تعرف لم؛ لأنها تفصل كل شيء على مقاسها. تدافع أنت عن نفسك، لا توافق على رأيي، وتزعم أن ما قالته كورا صحيح برأيك، وأنك بالمناسبة لا تعرفها جيداً. كأن هذا منعك في يوم من الأيام من أن تطلق الأحكام. هنا تعترض، أنا أصر على موقفي، ثم نلاحظ أننا سنبدأ الشجار، نضحك ونجد أني أستعيد صحتي. وهل من برهان أصدق على هذا من الشجار.

في اليوم التالي يأتي اختصاصي علم الأمراض من دون إعلان مسبق، إنها غير مستعدة لزيارته، لكنها بالتأكيد لا تستطيع رفضها. ثم لماذا ترفضها؟. إنها زيارة ودية كما يظهر من محياه. مهندم ومزوق تحت الرداء الأبيض الذي لا شائبة فيه والذي يرتديه مفتوح الأزرار. رباط العنق فضي اللون. ممشوق القد، إن لم يكن أقرب إلى الهزال، يمد لها يداً نحيلة. ضغط يد جامد وميت. والآن! يقول رسول العالم السفلي بصوت أقرب إلى الخشخشة ويتوقع منها أن تضحك. هو لا يضحك. تقول إنها مرت كثيراً باللوحة ذات السهم الأبيض الدال على جناح علم الأمراض وهي مدفوعة

على السرير. يقول: مرت به مروراً، هذا جيد، جيد جداً. يكشف عن ابتسامة لا تود أن تراها. خدود عميقة، لا بد أنها تحلق مرتين على الأقل في اليوم، ومع ذلك لا يزول عنها ذلك البصيص الأزرق، شعر داكن السواد، محلوق بعناية لا عناية بعدها، تصل خصلات غرته إلى الحاجبين.

تفكر ببعض الذعر المسبق، كلنا يعرف اليوم من أفلام التلفاز كيف هو جناح علم الأمراض، أجسام متصلبة باردة تحت شراشف بيضاء أو في الثلاجات، لا يحتمل أحدنا منظرها إلا لأنه لا يحيلها على نفسه. يقول ضيفها: لكن، لكن لا علاقة له بهذا على الإطلاق، وعلى كل حال لا علاقة له به تقريبا. ولا يفسر لها كيف عرف بما تفكر. يقول أخصائي علم الأمراض: هكذا هم الناس دائماً؛ لا يكافئون من حمّلوه وزر عمل لا بد منه بحكمة. نعم، هذا ما فكرت فيه، توافق على كلامه فوراً، معه الحق ولا شك، هكذا هم الناس. ويقلب من أثقلت عليه بوزر ما لابد منه شفتيه بألم وسخرية. يقول إنه بالمناسبة جاء لمجرد الفضول، وهم ما لم تصدقه إلا بصعوبة. أراد أن يشاهد تلك المرأة التي ربت في جسمها ذلك النوع من الوحوش الضارية. لقد وضعها هو تحت المجهر، عزلها وتعرف عليها، تلك النماذج النادرة، التي لا تقع تحت عدسة أحد، حتى عدسة رجل طويل الخبرة مثله، كل يوم: بكتريا الأمعاء القاتلة.

شعرت في هذه اللحظة أنها في حاجة إلى المزاح، سألت إن كان عليها أن تكون فخورة. حدق فيها وهو يوازن كلماته: «حسب....»، لم تسأل حسب ماذا، فلم تكن راغبة في متابعة الحوار. ازداد ثقل الحديث عليها ثانية بعد الأخرى، إلا أن محدثها لم يشعر به أدنى شعور، فقد كان ينوي قضاء ساعة سمر معها. قال: يمكنها أن تكون فخورة بالنتيجة أو لا تكون، حسب ما راهنت عليه. أنا؟ سألت هي بقدر ما فيها من براءة. استبعد ضيفها هذا السؤال الثقيل بحركة يد سريعة: إذا كانت، فرضاً، قد راهنت على نهاية مميتة فإن السادة الذين أرسلتهم للإتيان بهذه النتيجة كانوا ضعافاً قليلاً، قليلاً جداً بالمناسبة، أما إذا كانت قد احتاجت عذراً مقنعاً لتأخذ استراحة قصيرة من هذه الحياة اللامعقولة، التي أرغمنا كلنا على الخوض فيها؛ فعندها: كل الاحترام. فقد بالغت في الرهان؛ لأن ما أقدمت عليه لم يكن مجرد معركة مع الهواء، في هذه الحالة من حقها أن تكون فخورة بنصرها.

«لكن»، تقول ويحني اختصاصي علم الأمراض رأسه بتهذيب شديد ليسمع بم سترد، وعندما لا تستفيض في الجواب، يكمله هو لأجلها، لكن لم يكن من وراء هذا نية؟ تومئ، غير مقتنعة تماماً كما تدرك.

فيقول ضيفها المتحلي بالأدب الرفيع: «سيدتي الغالية المحترمة؛ لا نريد نحن الاثنين أن ننزل لهذا المستوى من الحديث، فنحن أكبر منه. إذا كان هناك شيء ليس له أدنى أثر فيما نعمله ونتركه وفيما يحدث لنا فإنها نياتنا، أليس كذلك».

- إذن فهو عالم بالقوى المؤثرة؟

- احتمال وارد.:لا يعرف إلا من النتيجة، هذا إذا سمحت له بالاستطراد قليلاً. في بداية عمله كان هو نفسه يستغرب أحياناً مما نفعله نحن البشر لتأتي هذه النتيجة. لن تصدقيني.

- قصدك!!.

- أقصد ما نتحدث عنه طوال الوقت، الموت. ألا يسليك أنت أيضاً مدى صعوبة النطق بهذه الكلمة البسيطة والواضحة لدى كل الناس ولاسيما في هذا المكان؟

- لاحظت هذا.

- أرأيت

- لكن وبما أن أحداً منا لن يفلت منه؛ فلماذا يبذل بعضنا جهوداً جبارة ليستقدمه.

أعجب من سماع هذا السؤال منك، إذا سمحت لي بقول هذا؛ يقول الضيف الشاحب الذي لم يذكر اسمه حتى الآن، ما تلاحظه الآن، هذا الخطأ الشنيع من رجل يبالغ في التأدب. لقد نسيت، أنت لم تستعيدي كل قواك بعد. لكنك، وأنت لن تعارضيني إذا قلت إن الأدب مملوء بالأوصاف الصعبة لجهود البشر الذين يحنون إلى الموت منذ أقدم العصور، أليس كذلك.

هي لا تعترض.

- ولهذا فالمكان الذي تنتهي إليه كل المحاولات القلقة لهذه الأرواح هو أقرب الأمكنة إلى الواقع؛ ألا تتصورين أن من يريد الدنو من الواقع يختار هذا المكان ليعمل فيه؟

أكيد أكيد. يمكنني أن أتصور حقاً.

- عمل لا يسمح بأدنى حد من خداع الذات؟

- يقيناً، أتصور هذا أيضاً، مع أن ...

- مع أن خداع الذات وسيلة من وسائل الحياة؟ من وسائل البقاء على قيد الحياة؟

- طيب، إن كان يريد هذا التعبير.

- أريد؟ أنا أريد؟ لا، لا؛ أنا لا أريد هذا، لكن جميع الأحياء يريدونه، عليهم أن يريدوه. طيب، أمر الله.

الناس أذواق؛ كما نقول نحن الفرنسيون. عاجلاً أو آجلاً سيعلم الجميع الحقيقة، كل أولئك المساكين، الذين يخدعون الآخرين ويخدعون ذواتهم. لننتظر وسنرى. تتحرز من معرفة أي ضمير جميع يستخدم ضيفها. هل يقصد حقيقة أن كل إنسان سيموت؟

- هذه أيضاً. لكن بالدرجة الأولى، سيدتي العفيفة، حقيقة إن كان هناك تحت ما تسمى القشرة الزائلة شيء ما يستحق المحافظة عليه، شيء دأب الإنسان المنذور للموت طوال عمره على أن يخلقه في نفسه بالمحافظة عليه بالموت. تفهمين؟ هنا، إذا جاز القول يفاجأ الكثيرون أسوأ المفاجأة. طيب، لقد أطلنا الثرثرة. علي الذهاب؛ فالعمل لا يحتمل التأجيل.

لا توقفه. بالكاد تنفذ من قبلة على اليد. هل تشعرين بالبرد؟

- قليلاً.

- سأضع الغطاء على قدميك، مسموح؟

- لفتة نبيلة، شكراً جزيلاً.

لا شك أن البروفسور الذي يدخل الآن صادف ضيفها في الممر، يقول إنها تشرفت بزيارة عالية؛ إنه اختصاصي مشهور، السيد الزميل.

- اختصاصي بماذا أيها البروفسور؟

- ماذا تعنين؟؟. اختصاصي في الكشف عن الجراثيم في الأسس؛ إذا كان أحدهم قادراً على الكشف عنها فإنه هو. هل تتصورين كم من المرضى أنقذ من الموت المحتم. كل ما علينا أن نفعله بعده هو حقن الدواء المناسب، الذي يكافح دوافع المرض. إنه يطاردها بحمية صياد غير معقولة. لقد نما فيه حقد شخصي عليها. وكم يتعذب عندما يتأخر في كشفها ...

- إن لم يتمكن من النفاذ من النهائية المحتمة يتعذب؟.

- يجن جنونه.

- إذن فهو يحب الحياة؟

- عفواً؟ هذه الصياغة غريبة نوعاً ما إذا أسبغت على صديقي؛ لأعبر بصياغة أخرى: إنه يصارع الموت.

- هل تسمح لي أيها السيد البروفسور بطرح سؤال؟ أنت، هل تحب الحياة؟

- نعم.

ثم يضيف أنه بالمناسبة جاء ليعلم المريضة ببعض الإجراءات الجديدة، غداً ستتوقف عن التغذية الصناعية،

إعلام عملي يتوقف بعده قليلاً ليمنحها فرصة الاعتراض، وحين يراها لا تعترض يغني على موالها؛ بالتأكيد هذا واضح، سيتعين عليها أن تعتاد التغذية الطبيعية من جديد؛، لكن هذا يحدث بسرعة عالية عموماً، لن تتصور بعد أيام أنها كانت تعيش من دون طعام.

الآن لا تتصور كيف ستبلع قطع الخبز التي وضعتها الممرضة إيفلين على الطاولة بنشاط عال وحيوية. قالت بصوت ملتبس: «خبز أبيض». فصلتها عن المغذي، وأخرجت الإبرة التي كانت ملصقة على مرفقها منذ أسابيع. هكذا وبالتدريج ستعود إنساناً حقيقياً. لن يسيل المزيد من إكسير الحياة في أوعيتها الدموية، عليها أن تبدأ بالجلوس في سريرها وأن تشرب حساءها بنفسها. يتضح أن فمها غير قادر على اللوك، كما يتضح تماماً فقدان عضو يستقبل الغذاء من ذلك المكان الذي يفترض الأطباء وجود المعدة فيه؛ فهذا العضو قد ضمر لأنه لم يستخدم طوال تلك المدة. يا للاكتشاف المذهل. يثلم الخبز بلعومها أكثر من اللازم، تضعه بعد ثلاث قضمات جانباً وتعلل باقتضاب أنها لا تشتهي. تبلّغ بلهجة تقريرية بأنها ستستعيد شهيتها؛ لكن عليها أن تأكل على الرغم من هذا. ولاسيما الطعام الغني بالحديد، مستوى الحديد في دمها متدن جداً، لا غرابة بعد فقدان الدم.

تجلب معك عصيراً داكناً، حساء خضار حضرته بيدك، وأفخاذ دجاج مطبوخة على البخار؛ وبالتأكيد أنت لا تصدق أن الأكل قد يكون عذاباً. لقد بدأت تثير أعصاب أوفى الناس تدريجياً، لكن لمن ستقول إن استعادة الصحة عمل شاق. يبدو أن الجميع يرون أنه من البديهي أنها تريد السير وستريد لو أنها لم تنس كيف يمشي الناس، ولو أن جانين المدلكة ذات البشرة الحنطية التي طلق والدها من زوجته الألمانية لأسباب سياسية معقدة قبل أعوام لا تحملها الكثير. إنها لا تكتفي بأن تطلب منها الجلوس على حافة السرير؛ بل تتمادى وتحلف عليها بالنهوض، بالوقوف إلى جانب السرير، بل وأن تخطو خطوة واحدة، بديهي أن تستند على زندها، ومن ثم خطوة أخرى، ما يعني أنها ستخطو الخطوتين في طريق العودة، قبل أن تتهاوى أخيراً في سريرها مرهقة ومسامات جلدها تنضح بالعرق. تعد جانين بأنها ستأتي مرتين في اليوم.

لم يعد في الجناح قمصان نظيفة، يطيل معاون رئيس الأطباء زيارته، ويقف إلى جانب سريرها ناحية القدمين ليشرح لها بعض الأمور.

تتعلم منه أن المستشفى صورة عن المجتمع، وهذا المجتمع يعاني من عيوب كثيرة، حتى لو لم يعترف بها أحد. يقول معاون رئيس الأطباء: بكل صراحة ووضوح ليس لدينا المال

لنشتري الحاجات الملحة، وهو ما يؤدي بالتأكيد إلى عجز في أغطية السرير، في المناشف وفي القمصان أيضاً. هذا بصرف النظر عن نوع معين من الحقن أو عن القفازات، صناعة محلية. المسرحية التي شاهدتها أكثر من مرة. يقول معاون رئيس الأطباء: نحن ملزمون بالتوفير، على المؤسسة أن تنفذ الخطة الإنتاجية، وعلينا نحن أن ننفذ خطة التوفير. لحسن حظنا يتمتع مديرنا بسمعة جيدة لدى المسؤولين، وإذا خرجت الأوضاع عن حد المعقول فإنه يذهب هناك ويخبط بيده على الطاولة.

تسأله ببعض المكر لتتأكد من صحة الإشاعات فيما إذا كان دواؤها الغالي جداً متوافراً؟.

ينفث معاون رئيس الأطباء الهواء من منخريه: «المفترض ألا تعرفي؛ لكني بصراحة مللت من كل هذه السرية، كان علينا طلب هذا الدواء من الغرب، ولأن الحاجة عاجلة جداً ذهب ساع لديه تأشيرة سفر دائمة إلى برلين الغربية في الترام، اشترى الدواء وعاد على وجه السرعة، جلس في القطار، اتصلوا بنا، انتظره ساع من طرفنا على المحطة في سيارة الإسعاف، وجاء بالدواء مع زمور الإسعاف. ولم يكن بوسع أحدنا ضمان وصوله في الوقت المناسب، لم أر المدير على تلك العصبية من قبل.

تقول هي: «آها؛ إذن هكذا جرت الأمور، لكن لدي سؤال آخر: هل كان سيحصل على هذا الدواء كل من يحتاج إليه».

يقول معاون رئيس الأطباء: «بالتأكيد، إنني واثق من ذلك. عند الضرورة القصوى تستقطع العملة من صندوق خاص. علينا أن نوفرها في مكان آخر. وهل تعلمين ما هي النتيجة؟ كلنا نصبح أبطال العالم في الارتجال؛ الزملاء الذين يغادروننا إلى الناحية الأخرى يثيرون هناك صيحات الإعجاب بقدراتهم على صنع الذهب من القمامة».

تقول: «مثل ابنة الطحان الفقيرة في الحكايات!!».

ثم تسأله لماذا لا يريد هو أن يمتلك حديقة مثل مديره المشهور بتربية الورود قدر شهرته بالجراحة تقريباً. كان معاون رئيس الأطباء يفكر في حكاية ابنة الطحان ولم يفهم السؤال. لا يصدق أنها سمعته قبل عهد بعيد، بعيد جداً، قبل أولى العمليات يقول إنه لا يريد بأي حال أن يملك حديقة. وهو بالتأكيد لا يتذكر؛ فهم يثيرون قبل كل عملية موضوعات لا أهمية لها ليلهوا بها، بينما جهازهم العصبي مركز تماماً على العملية. ويعقب: «لكن معها حق»؛ فالحديقة هي آخر ما يفكر فيه، حتى لو كان هذا لمجرد أن المدير يصرعهم كل يوم بذكر أنواع وروده. وما هي هوايته؟ ستضحك إذا كشفها لها: إنه يجمع المسكوكات. بهذا يصبح المرء مؤرخاً إلى جانب عمله.

- وماذا يقول المؤرخ عن الوقت الراهن؟

- لا يجد نموذجاً للمقارنة

- هل هو قاتم إلى هذه الدرجة؟

- وأكثر؛ لكن نحن بشر عميان لحسن حظنا.

- وأنت تجعل العميان يمشون.

صحيح تماماً يا مدام. لم يكن لدي شيء أفضل أقدمه، لكنك أنت ـ كما أرى ـ تريدين أن تجعلي العميان يبصرون؛ فلا عجب إذن إن خذلت قدماك.

- هل هذا التشخيص من مجال اختصاصك؟

- من مجال اختصاص علم البشر، كما أظن.

فيضحكان في كفيها على السذج الذين لا يتعلمون.

- أنت تخطئين الظن بي؛ لماذا لا يحق لأحدنا أن يحن إلى الماضي، إلى ذلك الزمن، حين كانت الأمنية تساعد، وحين كانت ابنة الطحان تغزل من التبن ذهباً.

- لا تنتهي كل الحكايات نهاية سعيدة لجميع المشاركين؛ ولأهدأ من روعك أقول إني شفيت.

- هكذا إذن؛ سنعلمك في الوقت المناسب. بالمناسبة بعض الأمراض عنيدة جداً؛ لكني أثقل عليك، طابت ليلتك.

بينما يحل الظلام متأخراً وبطيئاً ـ لأننا مقبلون على الانقلاب الصيفي ـ تتصور معاون رئيس الأطباء وهو ينحني على مجموعة مسكوكاته، يفحص كل قطعة تحت المجهر والضوء الواهن يشع عليها.

لكل شيء ثمنه كما يقال، وثمن راحة ضمير اللامبالي هو الملل المضني؛ لكن ربما كانت هي آخر من يحق لها إصدار الأحكام.

ثم تشاهد من نافذتها غياب الشمس في مقطع السماء بعد أسابيع عديدة ممطرة، تتبهر عيناها اللتان نسيتا الألوان بالمشهد، وكل هذا هباء وليس دليلاً على قوة عليا، لم يخلقه أحد لأجل أحد؟ المرضة تيا لن تؤمن بهذا أبداً، وتقول إن من يؤمن به معتوه. أما هي فسعيدة بأنها تعرف لمن الحمد على غياب الشمس وكل الظواهر الجميلة الأخرى.

أعطيت للممرضة تيا التعليمات بإزالة مخارج الافرازات أيضاً، تقول: أخيراً انتهت هذه التدابير، الله في السماء يعرف عدد الثقوب التي يحتاجها الإنسان؛ أليس كذلك؟ والآن سنسد الثقوب الزائدة، سأرمي الخراطيم بكل سرور، لن يدوم الأمر طويلاً حتى تستلتقي على جانبك.

النوم على الجانب؟ ... لم لا ؟؟... مستحيل عزيزتي

تيا، مستحيل، الإنسان ينسى هنا بعض الأشياء. بالمناسبة هل تعرفين ما سمعته في مذياعي الصغير قبل قليل؟ يجري العلماء تجارب لتطوير مورثات تجعل الأبقار تدر حليباً إنسانياً.

«صحة وهناء»؛ تقول تيا التي لا تخلو من روح الفكاهة.

- وهل ستسمي هذا ذنباً؟

- أجل أنا واثقة، نعم وألف نعم.

على لائحة الكلمات الضائعة والتي أعيد اكتشافها سأضع كلمة «ذنب»، تقول المريضة لكورا باخمان التي تتفكر قليلاً ثم تبدي ارتيابها: «إن الذنب إحدى الكلمات التي تقيد الإنسان، وتضيف أنها قرأت الأساطير الإغريقية، فقد أثار هادس فضولها. لقد بدأت تتساءل أين يغيب وعي الإنسان الذي تخدره؟؟.

أرجو ألا يغيب في هادس كورا؛ لأن هذا يعني موته. لكن هناك تلك الأرواح التي تطوف على الحدود، لا تعيش؛ ولكنها ليست ميتة أيضاً. وتنصت إلى أغاني أورفيوس الذي يريد تحرير زوجته أوريديكه من عالم الأموات بالغناء. قوة الغناء هذه، أتفهمين ما أقول. جميع الحيوانات الكاسرة تنصت إليه عندما يغني، يجلس سيزيف على صخرته، يتوقف كلب الجحيم كربيروس عن النباح، يجهش قضاة الموتى بالبكاء.

يدفعني الفن بوصفه وسيلة لترويض الغرائز الكاسرة في الإنسان إلى التفكير.

- لكن أوريديكه تعود إلى عالم الأموات.

- هذا لأن أورفيوس لا يتمالك نفسه وينظر خلفه ليراها؛ ألا ترين أنه من الحكمة ألا ينظر الحي إلى عين الميت؟

- ولماذا عليه ألا ينظر.

- لأن النظر قد يجعله غير قادر على الحياة.

- تعنين أن عالم الأموات قد يغريه؟

- أو ربما نبذه عالمنا نحن الأحياء، كنت أراقبك كثيراً، كنت أستمع إليك أحياناً حين تكونين نائمة، كنت تسيرين في أنحاء غريبة.

معك كورا! لكن ليس من الضروري أن تعرفي هذا؛ أنت قررت إعادتي؟

هذا في حال أنك لم تصلي فعلا بعد.

هل وصلت حقا؟ تسئل نفسها عندما تغادر كورا. هل أريد الوصول؟ أليس علي أن لا أكتفي بتناول طعام الأحياء وحسب، بل أتذوقه أيضا؟ ترمقني بارتياب وحذر، بينما أكابد في ابتلاع العصيدة التي جلبتها، دافعا بها إلى أعماقي

ملعقة إثر ملعقة. بالله عليك لا تكرر على سمعي أن عصيدة جدتك لا يُعلى عليها. لما طرأ في بال جدتي قط أن الحياة قد تنبذها، أو أن يغريها الموت، كانت فقيرة وعندها ثلاثة أطفال. بالمناسبة هل فكرت في أوربان؟

تقول لا. تقول إنك توقفت منذ سنوات عن التفكير في أوربان وأمثاله، وتنصحني بألا أفكر فيهم أنا أيضاً، فلا جدوى من التفكير فيهم.

ربما كان هناك جدوى في التفكير؛ مثلاً أي رابطة تربطني بأوربان؟؟. هل فكرت مرة بأن الموت قد يكون مخبأ آمناً، وبأن الجبن - وليس اليأس - هو الذي يقود إلى ذلك المخبأ.

- يقود من؟ أوربان؟

- أوربان على سبيل المثال؛ لم تكفه الشجاعة ليتابع الحياة، لقد كانت صعبة جداً عليه؛ أليس كذلك؟

- لكن تهكمه كان ينقذه.

- مدة طويلة أجل؛ لكن ليس إلى الأبد كما نرى، كانت بذرة الأمل المزروعة فيه نقطة ضعفه. ورقة الزيزفون التي يتستر بها، إن كنت تعلم ما أعنيه. هنا كان بوسع الرمح أن يخترقه، لقد فاته أن يقتل الأمل في الوقت المناسب، هذا ما قتله.

فقد نصحها بهذا ذات مرة، لم يلتزم هو بنصيحته، أو لم يستطع الالتزام بها تماماً على ما يبدو. «الأمل بوصفه نقطة ضعف»؛ ألم يكن هذا تعبيره حرفياً؟ أولم يحدث هذا في آخر لقاء لنا؟ في ذلك العنبر الملتوي أمام قاعة المؤتمرات، في أثناء الاستراحة التي قدم فيها طعام فاخر لننخرط بعده في الجلسة الثانية، الجلسة الحاسمة للاجتماع الذي يديره أوربان. كما اتضح لنا فيما بعد. كنوع من أنواع الاختبار، عليه أن يخضع له. جرى هذا بعد خطابه المقفر، عندما كنا تحت مراقبة شبان لا يلاحظون حتى في طريقنا إلى المرحاض. كان عليها أن تكون غاضبة، للأسف كانت حزينة. جاءت مصادفة قبالة أوربان. أدلت بملاحظة حول المخبرين؛ فاكتفى برفع كتفيه: «ليس من اختصاصي». قالت: «تريدون شراءنا بسمك سليمان». لوى شفتيه: «بعضكم سعره أغلى». سألته إن كان قد كتب الخطاب بنفسه وجاوب باقتضاب ووضوح: لا، على كل حال ليس جميع مقاطعه. سألت: هل هذا ضروري؟ قال: نعم، إنه ضروري. قالت: تحاولون تخويفنا. هو: إذا كسبنا بذلك عشرة أصوات معارضة، فسنفعلها. إذن فأنت موافق على أن يحاكم الزملاء الذين يطالبون بحقوقهم ويفصلوا. قال أوربان: لم أقل هذا.

تبين أن أوربان لم يكن «موافقاً» على أي شيء عملياً. تساءل أوربان: أم هل تظن أنه غبي؛ لكن إذا كانت السلطات

ـ﴿ أعلى الهرم معرضة للخطر، فيجب فعل كل شيء، كي تصدر الأحكام ـ﴿ مصلحتها. وهنا فإنه يسمح بأن يدسوا ـ﴿ ثنايا خطاباته ما يعدونه صحيحاً.

قالت: لكن أنا مثلاً سأعترض، وكذلك عدد من الزملاء. قال أوربان بشفتيه الرقيقتين إنه يعرف ويأسف على هذا. يظنون أنهم شجعان شجاعة لا حدود لها، إلا أنهم ـ﴿ الواقع لا يتمتعون بتفكير بعيد. إذا أخذ هذا الاجتماع مجراه المحدد، رغم كل المخاوف، وحسب المعطيات المقدمة سلفاً، فإنهم سيكسبون صيتاً طيباً لدى القيادة، وسيتجرؤون بعدها على المضي خطوة أخرى ـ﴿ حقل آخر. الأمر الذي لا يتوقعه ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد.

- سألت: وما الذي يمكن إنقاذه بعد.

- قال أوربان: الواجهة؛ إلى مدى محدد على الأقل.

- قالت: إذن فالأوضاع برأيك متدهورة.

- أجل.

- إذن فما حاجتك بالواجهة؟

- للتغطية على الانسحاب المنظم، أم أنك تفضلين الانهيار الفوضوي.

قالت بعد استراحة قصيرة: تعرف معنى ألا يكون أمامك إلا خيارات خطأ. كان يعرف ذلك. نصحها بأن تقطع الأمل بغايات لا يمكن تحقيقها، وتكف بذلك عن المقاومة العقيمة، التي تظن أنها قد تغير بها أي شيء. قال: هذه حركات أطفال.

قالت: مفيستو العصر الجديد، الإغراء بالركود وليس بالحياة الأبدية؛ إذن فقد راح أدراج الرياح. قال: نعم، على الأقل في هذا العصر، لم يكن ملائماً لتجربتنا. نحن لم نكن ملائمين أيضاً، ولاسيما نحن. ليست مضطرة لتقول له إنها تأسف. تأسف على الضحايا الذين سيزداد عددهم مستقبلاً؛ فمقارنة بها لا تشكل أعداد الذين سيفصلون اليوم ذرة صغيرة. لن يشعروا بكثير من الألم في سقوطهم، بل بعض المرارة، أضمن لك هذا. وحتى هذا الجميل لن ينكروه لنا.

عدنا إلى القاعة خصمين

في وقت متأخر من المساء سألت كورا باخمان إن كانت تعرف أن الألم الذي يعانيه الإنسان من الخيبة معيار للأمل الذي كان يخبئه في قلبه. كورا لم تكن تعرف، أقول لها: يجدر بالإنسان أن يتقصى أثر الألم مجرداً من السلاح، يجدر به أن يضحي بحياته من أجله.

كورا موافقة تماماً على رأيي، نشبك أيدينا من جديد، تنزلق المدينة تحتنا، شيء ما يختلف عما سبق. تقول علينا ألا نلتفت نحن الاثنتان. أفهمها وأخيراً أتعرف عليها؛ إنها الرسولة التي تستقبل الأرواح التي لم تمت بعد في طريقها إلى هادس، تنتزعها من العالم السفلي وتعيدها إلى عالم الأحياء. «لقد وفقت»؛ أقول لكورا وتقول هي مازحة: «لكن العمل معك كان عسيراً جداً». أعرف أن عليها أن تتركني الآن، تحرر يدي من يدها وتختفي.

أستيقظ على شعور مؤلم، الصباح ساطع، جانين واقفة إلى سريري وتبشرني بأننا سنمشي اليوم حتى النافذة، تقول: ثمان خطوات، سنتمكن منها. لا تقبل أي اعتراض. تدخل أنت مع البروفسور ونحن واقفتان إلى جانب النافذة. مازلتما تعقدان مؤتمرات سرية؟ آه، لا، لقد التقينا مصادفة على باب غرفتك. والآن تمتعي بالمشهد الجميل؛ لتعرفي أين كنت طوال الوقت.

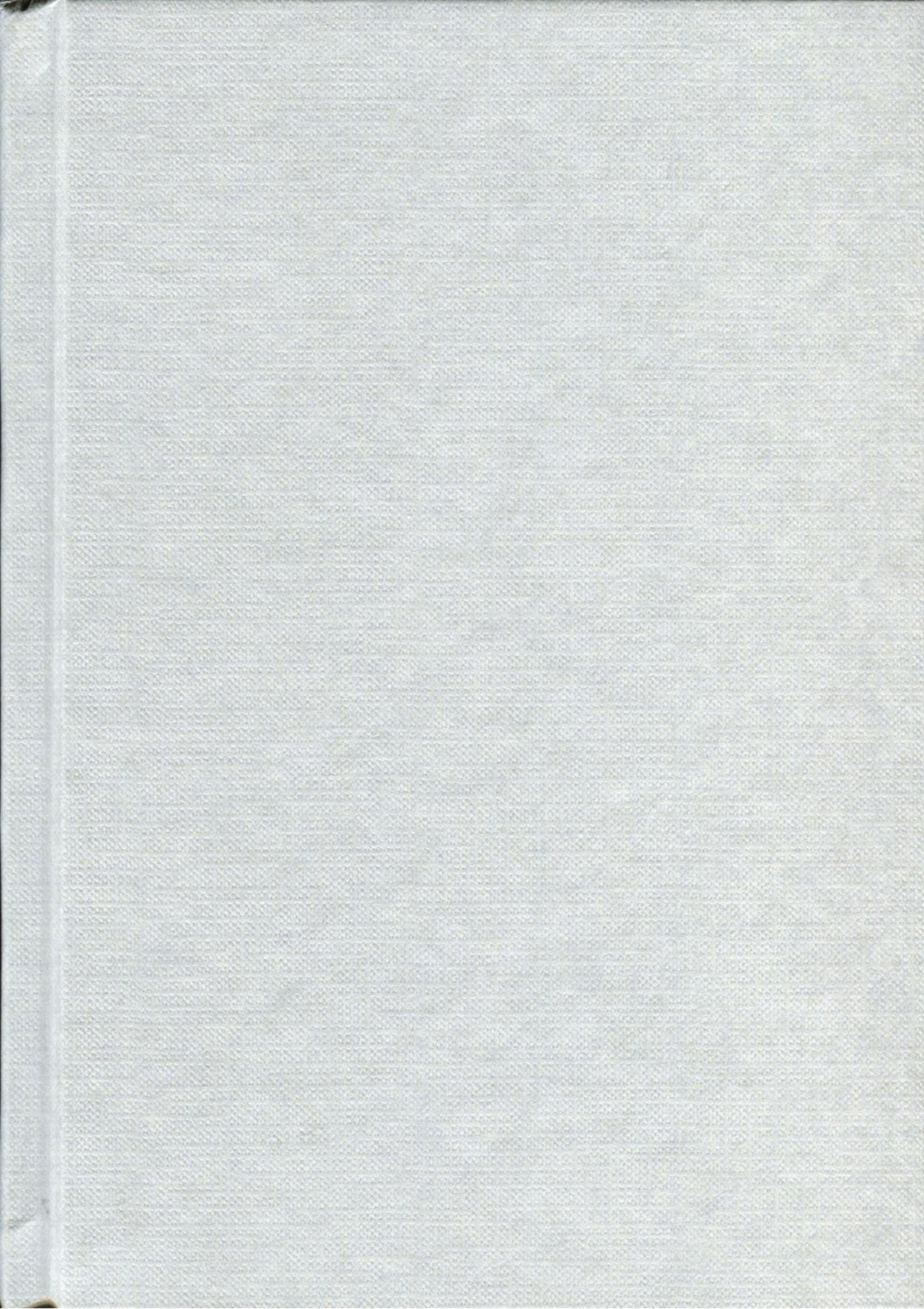
يتألف المشهد من مدينة وحدائق وبحيرة تمتد إلى حدود الأفق وتلمع فيها الشمس، تقول: «كتبت عن لمعان الشمس في البحيرة قصائد كثيرة؛ لكنه جميل في الطبيعة أيضاً».

أقول: أجل إنه جميل.

«بالله عليك لا تبكي»، تقول.

أقول: هذا أيضاً وارد في قصيدة.





نبذة عن المترجم:

ولد عام 1968 في تل عربيد (سوريا)، ويقيم منذ 1996 في ألمانيا. درس الآداب الألمانية والاستشراق في جامعة بوخوم (ألمانيا). من ترجماته: غونتر غراس: في خطو السرطان، 2006. باتريك سوزكند: العطر 2007. شتيفانفايدنر: الأسئلة الخفية، محاولة للاقتراب من الإسلام 2007. رفيق شامي: يد ملأى بالنجوم 2009.

هذا الجسد

الصحة تعني ألاّ نظن أن المرض هو الممكن الوحيد في الحياة؛ تصل الراوية إلى هذه القناعة بعد أسابيع طويلة من الصراع مع مرض قاتل. برؤى دقيقة ومتنوعة تسرد الكاتبة مدة من الإقامة في المستشفى، عن تعامل الأطباء والممرضات، وكذلك عن الجدال مع الذات، مع التاريخ الخاص وتاريخ الدولة، التي تعيش فيها.

الأسبوعية تقول: «إنه كتاب رائع، وعلى غاية من الأهمية عن تاريخ مرض، لم يلم بالجسد وحسب، بل تعدّاه الى أبعد من ذلك».
صحيفة «دي تسايت»

«إنها قصة موت أو حياة»
جريدة فرانكفورت آلغماينه تساستونغ

علي مولا


ISBN 978-9948-01-397-6





